رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سلسلة الأنوار الهاشمية «١٥»

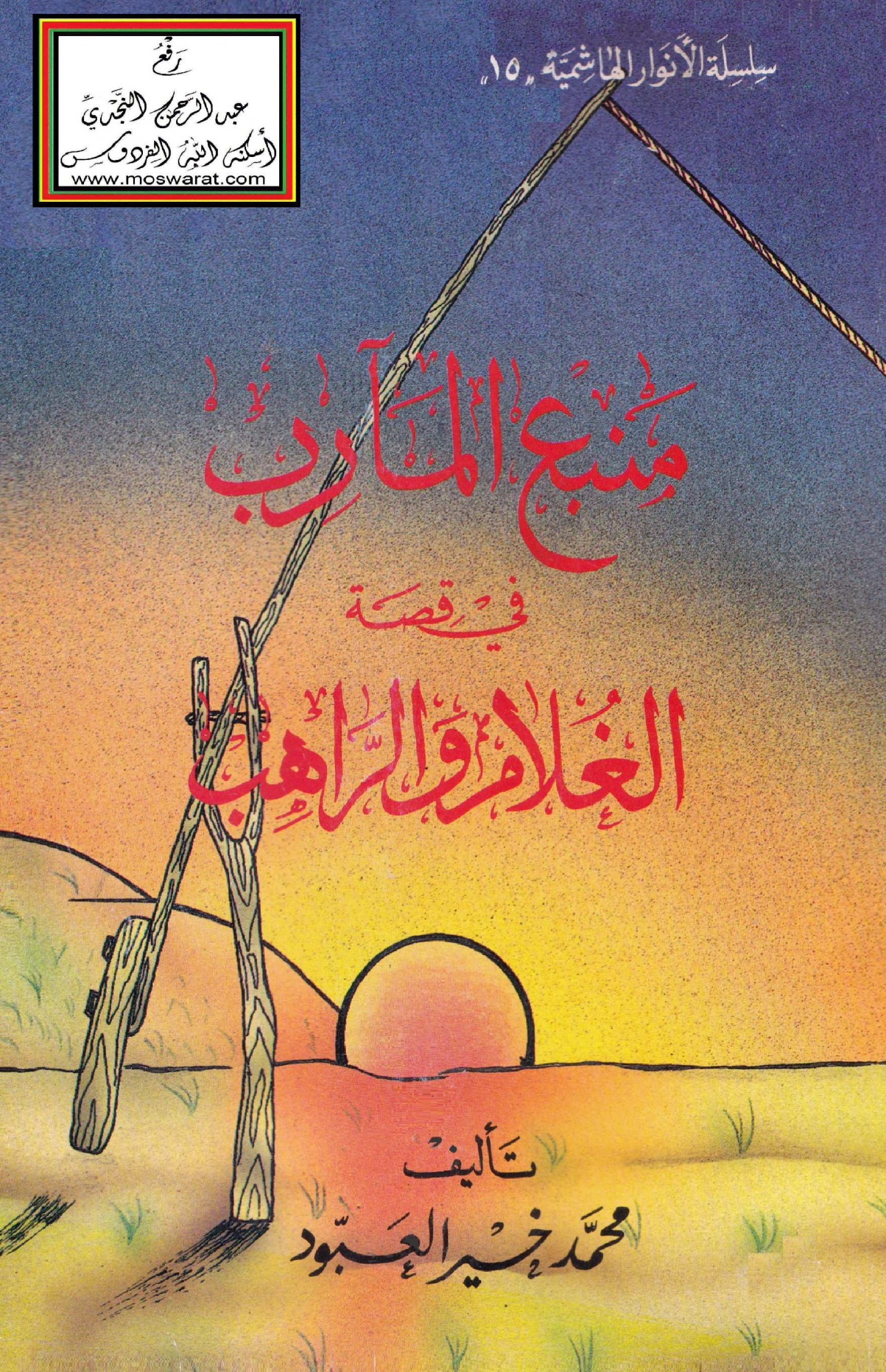

منبع المآدب

في قصة

الغلام والراهب

تأليف

محمد خير العبود

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سلسلة الأنوار الهاشمية ١٥.

منبع المآرب

في قصة

الغلام والراهب

تأليف
محمد خير العبود

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

الإعتصام للتنضيد والإخراج الفني
الأردن - عمان - (هاتف: ٧٨٠٩١٧)
الرصيفة (ص.ب: ٥٥٠)

الإهـــداء

إنَّ اللَّهَ لا يقبض العلم انتزاعاً ولكن يَقبضُ العلماء.
فيتَّخذُ الناس رؤوساً جُهّالاً ما عندهم عِلْم ولا حياء.
يقولون: لا تلعنوا اليهود والنصارى على منابر الحُنفاء.
أنّى لهم ذلك وقد لُعِنُوا على ألْسُنِ الأنبياء.
وقال اللَّه في كتابه: ﴿لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصَارَى أوْلِيَاء﴾.
وجاء زبانية الطواغيت وألقَوا القبض على الخُطباء.
وقام فرعون مِصْر خطيباً في أمثاله مِن طُغْمَة الشقاء.
استْتَأصِلوا شأفَةَ الأصوليَّةِ ومَنْ لا يُعطيكم الولاء.
زُجُّوهُمْ في غَيابَتِ السُّجون واتَّهِمُوهُم بالإغواء.
عليلٌ يداوي غيره ولم يَجِد لنفسه ولا لرعيَّته دواء.
ألا لعنةُ اللَّه على اليهود والنصارى ومن كانوا لهم أولياء.
يقولون سياسة! وما هي إلا كذبٌ وافتراء.
ساسَتُها من أبناء جِلدَتنا ذوي مكرٍ ودهاء.
راياتهم ملونة تَسْحَرُ الناظرين وفي حقيقتها سوداء.
خطاباتهم مُزَبْرَقَة تُطْرِبُ السامعين ولكنَّها جَوفاء.
المفسدون في الأرض بِطَانَتُهُم ويُلْقُون التُّهم على الأبرياء.

فَرَشُوا الموائِدَ وشحذوا مخالبهم لنهش لحوم الأتقياء.
اتَّهَمُوهم بالفساد والتَّطَرُّفِ وإشعال نار الفتنة فصبّرهم اللَّه على البلاء.
فَصَلوهم من وظائفهم وقَيَّدوهم وما كانوا يوماً لأهل الكفر عُمَلاء.
أرادوا طَمْسَ معَالِمِهم فرفع اللَّهُ ذكرَهُم وأحَبَّهُم أهلُ السماء.
وكُتِبَ لهم القَبُول في الأرض وصاروا لطَلَبةِ العِلْمِ نُجوم اهتداء.
كذا ضحّى الغلام بنفسه أمام طاغيةٍ ليقول الناس آمنا بربِّ الأبرياء.
فحُفِرَت الأخاديدُ وأضْرِمَت النيرانُ ومضى المُخلِصُون في سبيل اللَّه شهداء.
إخوة الإيمان لا تيأسوا وألِحُّوا على اللَّه في الدعاء.
فاللَّه ناصركم لا محالة وخاذل الأعداء.
فلله العزّة ولرسوله وللمؤمنين رغم أنوف المكرة الخبثاء.
وهذه هدية لإخواني ولا تنسوني من صالح الدعاء...

أبو أحمد العبود

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما من مشارق ومغارب، ثم استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله من غير تكييفٍ ولا تشبيه ولا تعطيل رغم أنف كل مشبِّهٍ أو معطلٍ غاصب، أحمده تعالى حمداً كثيراً على ما هدانا وطهّر اعتقاد قلوبنا من الشوائب. وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له شهادة تصلح بها القلوب والقوالب وتستضيء بنورها الأقلام والمواهب ويعز اللَّه معتقديها ويحظون بمعيّته وذلك أغلى المكاسب ويذل اللَّه جاحديها ولهم عذاب واصب. وأشهد أن محمداً عبداللَّه ورسوله ومصطفاه، لم يطلب الملكَ ولم يرتضِ المناصب حتى لا يكون بينه وبين رعيته حارس ولا حاجب، احبته المخلوقات كلها حتى شهد لفضله الخصم والصاحب. وكان فراقه لأمته من أكبر المصائب فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه صلوات ارجو بها شفاعته وهي عندي من أسمى المطالب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءاً واتَّقُو اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلونَ بِهِ والأَرحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيباً﴾. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وأَنتُمْ مُسلِمُونَ﴾. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَولاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوزاً عَظِيماً﴾.

أما بعد:

القصة لها دور بارز في توجيه حياة الناس إلى الخير أو إلى الشر على اختلاف مجتمعاتهم وتغير بيئاتهم، وتعدد لغاتهم ودياناتهم، لما لها من تأثير على النفس البشرية، حيث أن النفوس تبدي ارتياحاً لسماعها وتتفاعل مع مجرياتها. وكلما كانت القصة واقعية ويتحرى كاتبها وقائلها الصدق في الرواية، والدعوة إلى الخلق النبيل، كلما كان لها القبول والديمومة في حياة الناس.

ولما كان القصص القرآني هو من كلام رب العالمين كُتِبَ له البقاء والإستمرارية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكذلك كتبت الديمومة للقصص النبوي لأن المتكلم به لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى.

وهذه القصة التي بين أيدينا هي من كلام سيد المرسلين وإمام المتقين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم الذي شهد الجاهليون له بالصدق والأمانة ولقبوه بالصادق الأمين، أما جاهليوا هذا العصر فلا يشهدون إلا زوراً ولا يعدون الناس إلا غروراً، فالكاتب الذي يحارب الفضيلة ويدعو إلى الرذيلة هو الذي يحظى بشهاداتهم وجوائزهم (النوبلية)، ويعطى المقام المرموق في وسائلهم الإعلامية، ويلقى الدعم الكامل من الصهيونية العالمية لنشر قصصه الغرامية وأخرى لتعليم فنون اللصوصية وأخرى تحت شعار الحرية لتدمير الإسلام ونشر الإباحية.

إن المجتمعات الجاهلية في مختلف العصور والأزمنة تلتقي سوياً في الأهداف والمنطلقات، فهي توادع الفرد ما دامت أفكاره ومعتقداته في مرحلة

الكتمان أو ضمن حدوده الذاتية، فاذا ما حاول الجهر بها أو نشرها والدعوة إليها في المجتمع، صبّت عليه التهم صباً، وصار حسب قوانينهم عدواً لُدّاً، ويستحق أن يُمدُّ له العذابُ مَدّاً، وما نقموا منه إلا أنه لم يجعل لله نِدّاً.

لقد كان الحبيب محمد صلّى اللّه عليه وسلّم في نظر القريشيين وأهل مكة -قبل البعثة- الرجل الصادق الأمين صاحب العقل الراجح والرأي الصالح فما أن قام بالدعوة وأراد تبليغ الرسالة حتى تغير الموقف فأصبح القوم يقولون صابئ... ساحر... شاعر أو مجنون وصدق الله حيث يقول ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبلِهِم مِنْ رَسُولٍ إلا قَالُوا سَاحِرٌ أو مَجْنُونٌ. أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَومٌ طَاغُونَ﴾[1]. وهكذا نرى من خلال هذه القصة كيف أن وزير الملك الذي كان من المقربين لدى سيده ومن الحاشية التي تبصم بالحافر قبل البنان على ما يريده الملك، أصبح من المجرمين -في نظرهم- وحكم عليه بالإعدام لأنه أعلن استسلامه للملك العلام جلّ في علاه! ذلكم هو عصر الإستبداد وكبح حرية العباد.

أما عصر الديمقراطية والحرية فلا يختلف كثيراً عن سالفه، حيث أن الطغاة في كلا العصرين عدوهم واحد هو الإسلام، ولذلك لا غرابة لو اختار شعب الإسلام ديناً ونظام حياة أن يقف النظام العالمي الجديد وأدعياء الديمقراطية من اليهود وحلفاء الصهيونية في وجه ذلك الشعب وينعتونه بالأصولية ويعتبرون ذلك البلد وشعبه برميل بارود يهدد مصالحهم وأوطانهم! ثم ترى زعماءهم يتشدقون من على أرض المسلمين بأنهم لا يعادون الإسلام

(١) سورة الذاريات الآيتين (٥٢-٥٣).

ولكنهم يحاربون التطرف الديني! ثم أوضحوا أنهم يريدون إسلاماً يكون منسجماً مع النظام العالمي الجديد ويعني ذلك أن يستسلم المسلمون لهم بالولاء والطاعة ومن لم يوافق على هذا الشرط ويطلب تحكيم شرع الله فهو أصولي متشدد متطرف يجب قتاله واستئصال شأفته!

وحتى لا يكون كلامي هذا رجماً بالغيب، وحتى لا يدّعي المتفيهقون بأنني قد بالغت في الوصف، وجدت لزاماً عليّ أن أضع بين يدي القارئ الحبيب حادثتين واقعيتين معاصرتين تناقلتهما وسائل الإعلام العالمية، كي تكونا شاهدتين على ما كتبت:

أما الأولى: فقد قامت دول الحلف في النظام العالمي الجديد بانتقاد وشجب جامع الأزهر في مصر بسبب فتوى صدرت عن مشيخة الأزهر تقول بأن الذي يقتل دون وطنه المغصوب أو ماله المسلوب أو عِرضه المثلوب فهو شهيد. وتجاهل التحالف المشؤوم فتوى مجلس حاخامات بني صهيون، وغض الطرف عن قبائح أقوالهم وهدرهم دم الأبرياء من شعب فلسطين المسلم. إن النظام العالمي الجديد يدافع وبكل وقاحة عن الصهاينة المغتصبين وينتقدون بل ويشجبون كل من يناصر المستضعفين، بحجة أن فتوى الأزهر تتعارض مع مبادئ السلام الذي يدعون إليه!. سبحان الله! آلسِّلام يقصد هؤلاء أم السَّام؟!!

أما الحادثة الثانية فتتمثل بالإزدواجية الخبيثة التي يتميز بها هذا النظام الماكر، حيث أنه يطبق القوانين الدولية على العراق بسبب اعتدائه على الكويت وقام بتدمير الترسانة العسكرية لهذا البلد المسلم وبالمقابل لا يفعل

شيئاً حيال الصهاينة الأشرار الذين اغتصبوا الأرض والديار ويفرضون على اخواننا أشد أنواع الحصار في البر وفي البحار غير مكترثين بقانون دولي ولا قرار لأنهم شعبٌ مختار في نظر دعاة الضلال والملحدين الكفار والطواغيت الفجار!. ترى الصهاينة يجوبون في الأرض ويكثرون الأسفار بحثاً عن بضائع للإتّجار أو مصانع وحقول نفط للإستثمار، وللأسف هرولت إليهم بعض الدول وتسابقت على جني الثمار وما هي في الحقيقة إلا جمرات من نار! تقطع أمعاء كل من ترك هدي المصطفى المختار صلّى اللّه عليه وسلّم وصحابته الأبرار.

وبعد ذلك ينتقل المشهد في القصة إلى الساحة الحمراء الملطخة بدم الشهداء والتي تضج بآهات الأبرياء وما كان لهم ذنبٌ إلا أنهم يقولون آمنا برب الأرض والسماء، رب الأغنياء والفقراء، ورب المستضعفين والجبابرة العظماء...!

لقد وقف جليس الملك والراهب والغلام في ساحة الإعدام وتجهز الزبانية للإنتقام، فإما ردةٌ والعيش مع اللئام في حوالك الظلام وإما ثبات على الحق وفداء بالأرواح لرفعة الإسلام. فبات جليس الملك والراهب شهيدين في جوار ذي الجلال والإكرام، وحفظ الله الغلام من كيد الظالمين وشرفه بأعلى وسام، شهادةً في سبيله والناس يقولون آمنا برب الغلام!.

وهكذا لا ينفع حذرٌ من قدر، فمهما اجتمعت الأمم والجماعات والشعوب وتكاتفت وتجهزت بشتى أنواع أسلحة الدمار الشامل ليقضوا على جند الله فلن يكون لهم إلى ذلك سبيلاً.

إن أهل الكفر يُجَنِّدُونَ بعض أبناء المسلمين لقتل أهل الصحوة من هذه الأمة، تحت شعار القضاء على الأصولية! إلا أن الله سرعان ما يفضح نواياهم الخبيثة وخططهم الدسيسة ويجعل الدائرة عليهم بغيضةً بئيسة فيهلكهم وما يملكون من دنيا نفيسة... ولقد فهم عامة الناس أن فلاح الأمة في الدنيا والآخرة باتباع كتاب ربها وسنة نبيها محمد صلّى الله عليه وسلّم وهما الأصلان اللذان لم يطرأ عليهما تبديلٌ ولا تحريف وكل من يدعو إلى التمسك بهما فهو أصوليٌ متطرف متشدد في نظر أتباع النظام العالمي الجديد!

ولما كانت القصة التي بين أيدينا من كلام النبوة فإنه يستحيل على غير ذي عصمة أن يحصر منافعها أو يحدد كل مفاهيمها ولكن يجتهد في ذلك فإن أصاب فيحمد الله ويسأله الأجر والثواب وإن أخطأ استغفر ربه وأناب فإنه تعالى كريم جواد عفوٌ غفورٌ رحيمٌ تواب.

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وأزواجه والأصحاب وسلّم تسليماً كثيراً. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وكتبه

أبو أحمد محمد خير العبود

في ليلة الإثنين السابع والعشرين من شهر شوال لعام ألف وأربعمائة وخمسة عشر للهجرة النبوية الشريفة الموافق ١٩٩٥/٣/٢٨م.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التمهيد

أخرج مسلم في صحيحه بسنده

عن صهيب رضي الله عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ؛ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبُرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبُرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ؛ فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ: اليَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبُ فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ اليَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ؛ وَكَانَ الغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ. فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ

تَعَالَى، فَإِنْ آمَنْتَ بِاللّه تَعَالَى دَعوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللَّه تَعَالَى فَشَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَأَتَى المَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْه كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟!

قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الغُلاَمِ، فَجِيئَ بِالغُلاَمِ فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِيءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَشْفِي أَحَداً، إِنَّما يَشْفِي اللّهُ تَعَالَى، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ؛ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: إِرْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَدَعَا بِالمِنْشَارِ فَوُضِعَ المِنْشَارُ فِي مِفْرَقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ المَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: إِرْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوُضِعَ المِنْشَارُ فِي مِفْرَقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالغُلاَمِ، فَقِيلَ لَهُ: إِرْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: إِذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعَدُوا بِهِ الجَبَلَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى المَلِكِ فَقَالَ لَهُ: مَا فُعِلَ بِأَصْحَابِكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهُمُ اللَّه تَعَالَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: إِذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ وَتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَ إِلاَّ فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى المَلِكِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فُعِلَ بِأَصْحَابِكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالى، فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ تَجمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي

كَبِدِ الـقَوْسِ ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ الـلَّهِ رَبِّ الـغُلَامِ ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ الـلَّهِ رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ الـسَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فَمَاتَ فَقَالَ الـنَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ فَأُتِيَ المَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ. قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأُضْرِمَ فِيهَا النِّيرَانُ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَقْحِمُوهُ فِيهَا أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الـغُلَامُ: يَا أُمَّاهُ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ»

وأَخْرَجَهُ الـتِّرْمِذِي بِمَعْنَاه، وَفِيهِ: «وَكَانَ عَلَى طَرِيقِ الـغُلَامِ رَاهِبٌ فِي صَوْمَعَةٍ» قَالَ معمر -وهو أحد رواة الحديث- : أَحْسَبُ أَنَّ أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ كَانُوا يَوْمَئِذٍ مُسْلِمِينَ[1]. وفيه: «أَنَّ الـدَّابَّةَ التِي حَبَسَتِ النَّاسَ كَانَتْ أَسَدًا، وَأَنَّ الغُلَامَ دُفِنَ -قال-: فَيُذْكَرُ أَنَّهُ أُخْرِجَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأُصْبُعُهُ عَلَى صُدْغِهِ كَمَا وَضَعَهَا حِينَ قُتِلَ».[2]

ورواه الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كَانَ مَلِكٌ بِنَجْرَانَ، وَفِي رَعِيَّتِهِ رَجُلٌ لَهُ فَتًى، فَبَعَثَـهُ إِلَى سَاحِرٍ يُعَلِّمُهُ الـسِّحْرَ، وَكَانَ طَرِيقُ الـفَتَى عَلَى رَاهِبٍ يَقْرَأُ الإِنْجِيلَ، فَكَانَ يُعْجِبُهُ مَا يَسْمَعُهُ مِنَ الرَّاهِبِ، فَدَخَلَ فِي دِينِ

(١) يعني على الإسلام العام الذي دعا إليه كل الأنبياء. أما الإسلام الخاص فهو إسلام أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم.

(٢) ورواية الترمذي صحيحه. انظر صحيح الترمذي (٢٦٦١).

الرَّاهبِ فَأَقْبَلَ يَوْماً فَإِذا حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ قَطَعَتْ عَلَى النَّاسِ طَرِيقَهُمْ، فَأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فَقَتَلَهَا. وذكر نحو ما تقدم. وأنَّ المَلِكَ لَمّا رَمَاهُ بالسَّهْمِ وَقَتَلَهُ قَالَ أَهْلُ مَمْلَكَةِ المَلِك: لاَ إِلَهَ إِلاّ إِلَهُ عَبْدِاللّه بنْ ثامِرٍ، وَكَانَ اسْمُ الغُلاَمِ، فَغَضِبَ المَلِكُ، وَأَمَرَ فَخُدَّتْ أَخَادِيدُ، وَجُمِعَ فِيهَا حَطَبٌ وَنَارٌ، وَعَرَضَ أَهْلَ مَمْلَكَتِهِ عَلَيْهَا، فَمَنْ رَجَعَ عَنْ التَّوْحِيدِ تَرْكَهُ، وَمَنْ ثَبَتَ عَلَى دِينِه قَذَفَهُ فِي النَّار -وجِيءَ بِأَمْرَأَةٍ مُرْضِعٍ فَقِيلَ لَهَا ارْجِعِي عَنْ دِينِكِ وَإِلاَّ قَذَفْنَاكِ وَوَلَدَكِ -قَالَ-: فَأَشْفَقَتْ وَهَمَّتْ بالرُّجُوعِ، فَقَالَ لَهَا الصَّبِيُّ المُرْضَعُ: يَا أُمِّي، اثْبتِي عَلَى مَا أَنْتِ عَلَيْه، فَإِنَّمَا هِيَ غُمَيْضَةٌ، فَأَلْقُوهَا وَابْنَهَا.

ورَوى أبو صالح عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنَّ النَّارَ ارْتَفَعَتْ مِنَ الأُخْدُودِ فَصَارَتْ فَوْقَ المَلِكِ وَأَصْحَابِهِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعاً فَأَحْرَقَتْهُمْ، وقال الضحاك: هُمْ قَوْمٌ مِنَ النَّصَارَى كَانُوا بالْيَمَنْ قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللَّه صلّى اللّه عليه وسلّم بأَرْبَعِينَ سَنَةً، أَخَذَهُمْ يُوسُفُ بنُ شُرَاحِيلَ بنُ تُبَّعٍ الحِمْيَرِيّ، وَكَانوا نَيِّفاً وَثَمَانِينَ رَجُلاً، وَحَفَرَ لَهُمْ أُخْدُوداً وَأَحْرَقَهُم فِيهِ.

مما سبق يتضح لنا أن الرواية المرفوعة إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لم تبين نوع الدابة التي حبست الناس، بينما جاء تحديدها بالأسد في رواية الترمذي من قول معمر وهو أحد رواة الحديث. ثمّ ذكر الضحاك عن ابن عباس أنها حيّةٌ عظيمة. وكذلك اسم الغلام كان مبهماً في رواية مسلم والترمذي، في حين جاء معرّفاً في رواية الضحاك عن ابن عباس على أنه عبدالله بن ثامر.

وهكذا فإن رواية أبي صالح عن ابن عباس أشارت إلى الملك بأنه يوسف ابن ذو نواس بن تبع الحميري، في حين جاء مبهماً في الروايات المرفوعة. ولذلك فإني لم أهتم بأسماء الأعيان بقدر ما اهتممت بمضمون القصة ومدلولاتها والعِبَر المستفادة منها.

لقد تضمنت القصة معانٍ سامية وتضحيات نفوسٍ عالية ومدلولات راقيةٍ وعبر تلين بها قلوب قاسية ومواعظ تقشعر لسماعها الجلود وتذرف العيون الدمع باكيةً. وقال عمرو بن معدي كرب في الملك الطاغية وأمثاله.

أتوعدني كأنك ذو رُعَيْنٍ ... بأنعم عيشةٍ أو ذو نُواسِ
وكائِنْ كان قبلك من نَعيم ... ومُلْكٍ ثابتٍ في الناس راسِ
قديمٍ عهدُه من عهدِ عادٍ ... عظيم قاهر الجبروت قاسِ
أزال الدهرُ مُلْكَهم فأضحى ... يُنَقَّلُ من أناس في أناسِ

وذو رعين: ملك من ملوك حِمْيَرْ، ورُعين حصن له وهو من ولد الحرث ابن عمرو بن حمير بن سبأ.

أخي القارئ إن فوائد القصة نبعٌ لا ينضب ولقد وفّقني اللّه فكتبت عشراً منها، وهاكها فيما يلي من الصفحات.

(١)
التعرف على راوي الحديث

إن الثمار التي نجنيها اليوم من حدائق النبوة لم يكن لنا أن نذوق طعمها لولا أنْ حملها إلينا رجال من أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم. وإن الأنوار الهاشمية التي نستضيئ بها في حياتنا، لم يكن لنا أن نعيشها لولا أن ساقها إلينا إخوان محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ولذلك فإن أول فائدة نستفيدها من خلال هذه القصة التي بين أيدينا هي التعرف على من حملها إلينا: إنّه الصحابي الجليل صهيب بن سنان بن مالك... ويقال خالد بن عمرو بن عقيل ويقال طفيل بن عامر بن جندلة بن سعد بن جديم بن كعب بن سعد بن أسلم ابن أوس بن زيد مناة بن النمر بن قاسط النمري أبو يحيى وأمه من بني مالك ابن عمرو بن تميم وهو الرومي قيل له ذلك لأن الروم سبوه صغيراً وقال ابن سعد وكان أبوه وعمه على الأبلة من جهة كسرى وكانت منازلهم على دجلة من جهة الموصل فنشأ صهيب بالروم فصار ٱلْكَنَ ثم اشتراه رجل من كلب فباعه بمكة فاشتراه عبدالله بن جدعان التميمي فأعتقه ويقال بل هرب من الروم فَقَدِمَ مكة فحالف ابن جدعان. أسلم هو وعمار ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في دار الأرقم.

ونقل البغوي أنه كان أحمر شديد الصهوبة تشوبها حمرة وكان كثير شعر الرأس يخضب بالحناء وكان من المستضعفين ممن يعذب في الله وهاجر إلى المدينة مع علي بن أبي طالب في آخر من هاجر في تلك السنة فقدما في

نصف ربيع الأول وشهد بدراً والمشاهد بعدها.

هذا هو صهيب رضي الله عنه الذي خرج مهاجراً من مكة إلى مدينة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم، فيتتبع آثره نفرٌ من المشركين، فلما رآهم قد اقتربوا منه، نزل عن دابته وانتثل كنانته فقال: قد علمتم واللّه أنّي أرماكم رجلاً لسهم، وأنتم والله لا تصلون إليَّ حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي ثم أضربكم بسيفي، ثم أنتم وشأنكم بعد ذلك، فقالوا: لقد جئت إلينا ولا مال لك، والآن تخرج أنت ومالك، فوالله لا يكون ذلك أبداً، فقال لهم الصحابي الجليل الذي اشتاق إلى محبوبه وأخلص له في حبه: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفع لهم ماله ثم قدم المدينة فبلغ ذلك النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقال: «ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى، ثم تلا عليه قول الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[1] وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسعون لرضاء محبوبهم جل في علاه، ولا يكترثون بغضب الناس أجمعين إذا حققوا رضاء رب العالمين، وصدق الشاعر حيث يقول:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

وقد مات هذا الصحابي الجليل في شوال سنة ثمان وثلاثين للهجرة وهو ابن سبعين -رضي الله عنه وعن صحابة رسول الله أجمعين وحشرنا في زمرتهم يوم الدين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم- آمين.

(١) سورة البقرة الآية (٢٠٧). والقصة ذكرها ابن كثير في تفسيره (٢٤٧/١)، وابن سعد في الطبقات (١٦٢/٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٩٨/٣) وفي كنز العمال (٢٣٧/١).

(٢)
تصنيف ملوك الدنيا

إن من فوائد القصص النبوي أن يستلهم القارئ لحروفها أو السامع لموجاتها مواقف إيجابية تتوافق مع مقتضيات الترغيب أو الترهيب التي تشتمل عليها القصة. وفي سيرة الأوّلين عبرة للآخرين، وفي أخبار ملوك الأرض الأقدمين عظةٌ لمن خلفهم من الملوك والأمراء والرؤساء أجمعين. وهذه الحلقة النورانية المباركة هي واحدة من سلسلة الأنوار الهاشمية التي تضيء لنا الطريق الطويل المحفوف بالأشواك والشبهات. ومن أجل عدم الوقوع في الشبهات أو التَّعثر بالمهلكات أخبرنا الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم بخبر صادق عن حال ملك فاسق، فقال: «كان ملك فيمن قبلكم، وكان له ساحر».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهُ الله: فالناس في الرياسة على أربعة أقسام:

القسم الأول: يريدون العلو على الناس، والفساد في الأرض، وهمهم معصية الله وهؤلاء هم الملوك والرؤساء المفسدون كفرعون وحزبه، وهؤلاء هم شرار الخلق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ

الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

القسم الثاني: الذين يريدون الفساد بلا علو كالسُّرّاق والمجرمين من سفلة الناس.

القسم الثالث: يريدون العلو بلا فساد، كالذين عندهم دين، يريدون أن يعلو به على غيرهم من الناس.

القسم الرابع: فهم أهل الجنة الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً مع أنهم قد يكونون أعلى من غيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2].

فكم ممن يريد العلو ولا يزيده ذلك إلا سفولاً، وكم ممن جعل من الأعلين وهو لا يريد العلو ولا الفساد» أ.هـ .

ويتبين من التقسيم الآنف الذكر أن ملوك الأرض على صنفين: صنفٌ يستمد عظمته بالقوة القسرية وبالإستخفاف بعقول الرعية، ويسعى دوماً لنشر الفساد ومحاربة الدين والقضاء على القيم والأخلاق السوية، كالنمروذ وفرعون، ومن سار على نهجهما في استعباد البشرية، وصنف يستمد عظمته وعزَّتَهُ بالطاعة والإنقياد لأوامر خالقه وتوحيده له في الإلهية والربوبية والأسماء والصفات العلية، كسليمان وذو القرنين ومن استن بسنتهما وخالف الهوى والأماني الشيطانية.

---

(١) سورة القصص. الآية(٤).

(١) سورة آل عمران الآية (١٣٩).

ولقد ضرب الله لنا مثلاً في كلا الصنفين في أكثر من موضع في كتابه العزيز، فذو القرنين أوتي مُلْكاً عظيماً فمكن الله له في الأرض، وأعطاه سلطاناً قوي الدعائم، ويسر له أسباب الحكم والفتح، وأسباب البناء والعمران وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة، فكانت مملكته تمتد من المشرق إلى المغرب، ومع ذلك كله كان شاكراً لله ملتزماً بدستور السماء ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[1].

وهذا هو دستور الحكم الصالح. فالمؤمن الذي يسعى لنشر الفضيلة وقمع الرذيلة ينبغي أن يجد التكريم والجزاء الحسن عند الحاكم، والظالم الفاجر الذي يسعى لتحطيم أسس الفضيلة ونشر الرذيلة يجب أن ينال العقاب حتى يرتدع ويكف عن الشر. فإذا كان هذا هو ميزان الحاكم صلُح العباد وعم الخير في البلاد، وأما إذا انقلبت الموازين فقرّب الحاكم المفسدين في الأرض وأرخى لهم العنان وأبعد المصلحين وجعلهم خلف القضبان فعندئذ يصبح العاقل حيران ويلقي اللّه العداوة والبغضاء في قلوب الأخوة والأهل والجيران!.

أمّا نبي اللّه داود عليه السلام فقبل أن يختاره اللّه للملك اختارهُ وهو فتى صغيراً ليقتل جالوت الذي كان ملكاً قوياً مخوفاً عنده من الجيوش ما يصعب حصر عددها وعدتها، فما كان من هذا الفتى إلا أن وضع حجراً في مقلاعٍ ورمى به ذلك الطاغية فأرداه قتيلاً، فاخترق العادات وخالف الظواهر

(١) سورة الكهف. الآية (٨٧-٨٨).

لأنه استعان بالله الملك العزيز الجبار المتكبر...

وكانت هذه الحادثة سبباً في إشاعة صيت داود عليه السلام حتى تولى زمام الملك في بني اسرائيل. وإذا كان الطغاة من ملوك الدنيا يَسْتَمِدُّونَ قوتهم من الطغيان والبغي والتكذيب، فإن الملك داود كان ذا قوة ولكنه كان أواباً يرجع إلى ربّه طائعاً تائباً عابداً ذاكراً. لقد آتاه اللّه مع النبوة والملك قلباً ذاكراً وصوتاً رخيماً، فإذا الجبال تسبح معه، وإذا الطير مجموعة عليه تسبح معه تحمد ربها ورب الكون جميعاً... ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ والإِشْرَاق. وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوّاب * وشَدَدْنَا مُلْكَهُ وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَاب﴾[1].

إن خلق السماوات والأرض وما بينهما لم يكن عبثاً، ولم يقم على الباطل إنّما كان حقاً وقام على الحق، ومن هذا الحق الكبير تتفرع سائر الحقوق، الحق في خلافة الأرض والحق في الحكم بين الخلق والحق في التعامل بين الناس فلا يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ولا يكون المتقين كالفجار. إن شريعة الله للناس طرف من ناموسه في خلق الكون. وإن كتابه المنزل بيان للحق الذي يقوم عليه الناموس وإن العدل الذي يطالب به الخلفاء في الأرض إنّما هو طرف من الحق الكلي، لا يستقيم أمر الناس إلا حين يتناسق مع بقيّة الأطراف. وإن الإنحراف عن الشريعة إنّما هو انحراف عن الناموس الكوني الذي قامت عليه السماء والأرض وهو أمر عظيم إذن وشر كبير واصطدام مع قوى الكون الهائلة لا بد أن يتحطم في

(١) سورة ص، الآية (١٨-٢٠).

النهاية ويكون الصولجان للحق وأهله.

وورث نبي الله سليمان الملك عن أبيه عليهما السلام فنعم المورث ونعم الوارث إنّه أوّاب. وسخر اللّه له الريح تنقله حيث يشاء، وسخر له الشياطين يغوصون في الأرض بحرها ويابسها يلبون له ما يشاء من الطلبات، ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذَا أَتَوْ عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

لقد سار الموكب. موكب سليمان من الجن والإنس والطير. في ترتيب ونظام، يجمع آخره على أوله، وتضم صفوفه، وتتلاءم خطاه، حتى إذا أتوا على واد كثير النمل، حتى لقد أضافه التعبير إلى النمل فسمّاه «وادي النمل» قالت نملة. لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل في الوادي-ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم، تتنوع فيها الوظائف، وتؤدى كلها بنظام عجيب، يعجز البشر غالباً عن اتباع مثله، على ما أوتوا من عقل راق وإدراك عال- قالت هذه النملة للنمل، بالوسيلة التي تتفاهم بها أمة النمل، وباللغة المتعارفة بينها. قالت للنمل: ادخلوا مساكنكم- كي لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم. فأدرك سليمان ما قالت النملة وهش له وانشرح صدره بإدراك ما قالت وبمضمون ما قالت. فهي نعمة الله عليه تصله

(١) سورة النمل الآيات (١٧-١٩)

بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز. وانشرح صدره كيف يكون للنمل أن يفهم مقالة النملة فيطيع!. فحمد الله على هذه النعمة من باب ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم﴾، ربِّ أوزعني بمعنى أجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي وكلماتي وعباراتي وأعمالي وتوجهاتي لتكون كلها في شكر نعمتك عليَّ وعلى والدي....

﴿وَأَدْخِلْنِي برحمتك فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِين﴾.

أدخلني برحمتك... فهو يعلم أن الدخول في عباد الله الصالحين، رحمة من الله، تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح. يضرع إلى ربه وهو النبي الذي أنعم الله عليه وسخر له الجن والإنس والطير. غير آمن مكر الله حتى بعد أن اصطفاه. خائفاً أن يقصّر به عمله، وأن يقصِّر به شكره. ويتفقد الملك الصالح جنده فلا يرى الهدهد في الموكب، وما هي إلا لحظات والهدهد حاضر بين يديه، قد جاءه بخبر قوم يعبدون الشمس من دون الله، وتحكم أولئك القوم ملكة كافرة بأنعم الله، تسجد وقومها لمخلوق كسائر المخلوقات علماً أن الكون كله بنواميسه يسبح بحمد ربه ويسيرُ بمقتضى أوامر خالقه.

ويسدل الستار، فاذا بالملكة تقرأ كتاباً أرسل إليها من سليمان يدعوها فيها إلى الإستسلام لله رب العالمين، الله الذي يريد الخير لعباده ولا يرضى لهم الكفر فهو رحمن رحيم بمن أطاع أوامره وشديد العقاب بمن عصاه...

لقد فهم الملك الصالح أن الأرض كلها لله يورثها من يشاء من عباده

ولا بد من الجهاد لأجل إعلاء كلمة الله، كما جاء في الحديث الصحيح عن الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم «بُعِثْتُ بَين يَدَيْ السَّاعَةِ بالسَّيْف حَتَّى يُعْبَدَ اللَّـه وَحْدَهُ وجُعِلَ رِزقِي تحتَ ظلِّ رُمْحي وَجُعِلَ الـذُّلُّ والهَوَانُ عَلَى مَنْ خَالفَ أَمْرِي»[1].

وأرسلت الملكة بصناديق المال إلى نبي الله سليمان عليه السلام فإن قبلها كفاه شر الحروب، وإن لم يقبلها فيعني ذلك أنه يدافع عن عقيدة ولا طاقة لها بمقاومته!. إنَّ أهل الكفر يعرفون أن جيوش الحق لا تهزم وأن الذي يحارب عن عقيدة لا يمكن التغلب عليه، ولذلك يحاولون دوماً شراء الأنفس بالأموال وأعراض الدنيا، ويسعون إلى تغير شعار الحرب عند المسلمين من شعار العقيدة إلى شعارات زائفة كالأرض والوطن مما يجعل لهم الغلبة على المسلمين.

فقال نبي الله سليمان الملك الصالح عليه السلام «اتمدونن بمال؟! فما أتاني الله خيرٌ مما أتاكم». اتعطونني المال من أجل السكوت عن الحق والمداهنة في الباطل؟! فما أتاني الله من نعمة الإيمان ونعمة العلم ونعمة الملك ونعمة القيام على أمر الجهاد... كل ذلك خيرٌ مما في أيديكم من أعراض الدنيا الفانية والتي لا يفرح بها إلا من اشترى دنياه بآخرته.

وبعد مرحلة الدعوة تأتي مرحلة الجهاد واستعراض القوة التي تخيف أعداء اللّه ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. وبالفعل تستسلم قوى الشر أمام قوى الخير وتأتي الملكة ذليلة صاغرة لتعلن إسلامها بين يدي الملك الصالح سليمان عليه السلام معترفة أن

(١) رواه الإمام أحمد وأبو يعلى والطبراني وصححه شيخنا الألباني في صحيح الجامع (٢٨٢٨).

البقاء والديمومة في الملك لله رب العالمين.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾.(١)

إنّها الحقيقة الناشئة من حقيقة الألوهية الواحدة... إله واحد فهو المالك الواحد... هو ﴿مالك الملك﴾ بلا شريك.. ثم هو من جانبه يملِّك من يشاء ما يشاء من ملكه، تمليك العارية يستردها صاحبها ممن يشاء عندما يشاء. فليس لأحد ملكية أصيلة يتصرف فيها على هواه. إنّما هي ملكية معارة له خاضعة لشروط المملك الأصلي وتعليماته؛ فإذا تصرف المستعير فيها تصرفاً مخالفاً لشرط المالك وقع هذا التصرف باطلاً وتحتم على المؤمنين رده في الدنيا، أما في الآخرة فهو محاسب على مخالفته لأوامر صاحب الملك الأصيل... ﴿لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(٢).

اللهمَّ ولِّ أمورنا خيارنا ولا تول أمورنا شرارنا واجعل ولايتنا فيمن خافك واتقاك واتبع هداك..... آمين.

(١) سورة آل عمران، الآية (٢٦).

(٢) سورة غافر، الآيتان (١٦-١٧).

(٣)
السحر والكهانة من دعائم الحكم الجاهلي

هذه هي الفائدة الثالثة التي نجنيها من ثمار حدائق النبوة والتي جاءت من خلال القصة التي يقصها علينا الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم حيث يقول «وكان له ساحر فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث لي غلاماً أعلمه السحر»

وهذا الملك من صنف الملوك الذين يستمدون عظمتهم من الطغيان والبغي والفساد. ولما كان السحر نوعاً من أنواع الفساد في الأرض كما قال تعالى:

﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمُ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]، فلما كان السحر كذلك اتخذ هذا الصنف من الملوك السحرة في قصور حكمهم كدعامة من دعائم الحكم يستشيرونهم في الأمور الصعاب، ويطلبون منهم عمل السحر اللازم من أجل انتصار الجيوش وغير ذلك من أعمال شياطين الجن التي تتوافق مع أهواء شياطين الإنس!

فما هو السحر، وما هي حقيقته؟

يقول العلامة الألوسي[2]: «المراد بالسحر: أمر غريب يشبه الخارق،

(١) سورة يونس، الآية (٨١).
(٢) روح المعاني، (١/٣٣٨).

وليس به، إذ يجري فيه التعلم، ويستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح، قولاً كالرقى التي فيها ألفاظ الشرك ومدح الشيطان وتسخيره، وعملاً كعبادة الكواكب، والتزام الجناية، وسائر الفسوق، واعتقاداً كاستحسان ما يوجب التقرب إليه ومحبته إياه، وذلك لا يستتبُّ إلا بما يناسبه في الشرارة وخبث النفس، فإن التناسب شرط التضامن والتعاون، فكما أن الملائكة لا تعاون إلا أخيار الناس المشبهين بهم في المواظبة على العبادة والتقرب إلى الله تعالى بالقول والفعل، كذلك الشياطين لا تعاون إلا الأشرار المشبهين بهم في الخباثة والنجاسة قولاً وفعلاً واعتقاداً، وبهذا يتميز الساحر عن النبي والولي».

وقال الغزالي في تعريفه فيما نقله عنه صديق حسن خان: «السحر نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر، وبأمور حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الخواص هيكلاً على صورة الشخص المسحور، ويترصد له وقتاً مخصوصاً من المطالع، وتقترن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع يتوصل بها إلى الإستعانة بالشياطين، وتحصل من مجموع ذلك -بحكم إجراءات العادة- أحوال غريبة في الشخص المسحور».

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهُ الله[1] «والشيطان يضل الإنسان بحسب قدرته، فمن عبد الشمس والقمر والكواكب فإنه ينزل عليه شيطان يخاطبه ويحدثه ببعض الأمور، ويسمون ذلك روحانية الكواكب، وهو شيطان، وكذلك عبَّاد الأصنام فقد تخاطبهم الشياطين، وكذلك من استغاث

(١) مجموع الفتاوى: (١١٠/٢٩٢).

بميت أو غائب، وكذلك من دعا الميت أو دعا به، أو ظن أن الدعاء عند قبره أفضل منه في البيوت والمساجد»

ويقول في موضع آخر «والشياطين تدخل الأصنام وتعينهم في بعض مطالبهم كما تعين عبَّاد الشمس والقمر والكواكب والنجوم إذا عبدوها بالعبادات التي يظنون أنها تناسبها، من تسبيح لها، ولباس وبخور وغير ذلك، فإنه قد تنزل عليهم شياطين يسمونها روحانية الكواكب، وقد تقضي بعض حوائجهم، إما قتل بعض أعدائهم أو إمراضه وإما جلب بعض من يهوونه، وإما بإحضار بعض المال.

والشيطان خبيث، ولذلك يحب الخبث والشر والفساد ويتلذذ به، ويحب الذين يتصفون بهذا الخبث، فإذا تقرب إليه البشر بالشر والفساد أعانهم وحقق لهم أغراضهم، ومن إضلال الشيطان تنزله على بعض أهل الشر والفساد يزعم أنه روح من الأرواح فيظن هؤلاء المساكين أن الذي جاءه ملك، وإنما الذي جاءه شيطان.

وقد كان للأسود العنسي الذي ادعى النبوة شياطين يخبرونه ببعض الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه حتى أعانتهم على قتله زوجته لما تبين لها كفره. وكذلك مسيلمة الكذاب كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات، ويعينه على بعض الأمور». أ.هـ.

فيتبين لنا مما جاء بعاليه أن قوة وقدرات الساحر تعتمد على قوة العلاقة بينه وبين الشيطان. وفي هذا الشأن قال ابن القيم رحمه الله «وكلما كان

السحر أكفر وأخبث وأشد معاداةً لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحره أقوى وأنفذ.... ولذا كان سحر عُبّاد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام»[1] والشيطان وضع طرقاً مختلفة لخدمته وتعبيد الناس له، كي يثبتوا بها كفرهم وضلالهم، ولكنها جميعها تشترك فيما بينها بأنها ترضي الشيطان، وتغضب الرحمن، فبعض السحرة يصلون إلى السحر بالمجاهدات النفسيّة، حيث يعتزلون الناس، ويقلون الطعام، ويكثرون التفكير، ولكنها مجاهدات نفسية شيطانية تؤدي إلى تخبيث النفس وإفسادها، ولا تؤدي إلى تزكية النفس وتطهيرها. وآخرون يصلون إلى تحقيق السحر وإرضاء الشيطان بما يسمونه بالعزائم التي يعظمون بها الشيطان، بالأقسام به ومناداته والإستغاثة به، وفريق ثالث يزعمون انهم يستعينون بروحانية الكواكب، وكذبوا فما للكواكب من روحانية ولكنها الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم.

وأما أهل العزائم من المنتسبين إلى هذه الأمة وأكثرهم من الصوفية الذين يلحدون في أسماء الله وينادونه باسماءٍ مجهولة لم ينزل بها كتاب ولم ينبئ بها رسول ظناً منهم انهم توصلوا إلى حقيقة المناجاة مع الله فسخر لهم ملوك الجن يخدمونهم في كل ما أرادوا....

وهذا والله ضلال بعد هدى وكفرٌ بعد إسلام!

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾[2] لقد كان العرب في الجاهلية يعوذون بعظيم الوادي من سفهائه،

(١) التفسير القيم، (٥٨١).

(٢) سورة الجن، الآية (٦).

فلما رأت الجن ذلك ازدادوا كفراً وطغياناً. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «وبهذا يجيبون المعزم والراقي بأسمائهم واسماء ملوكهم، فإنه يقسم عليهم باسماء من يعظمونه فيحصل له بذلك من الرئاسة والشرف على الإنس ما يحملهم على أن يعطونهم بعض سؤلهم، لا سيما وهم يعلمون أن الإنس أشرف منهم وأعظم قدراً، فإذا خضعت الإنس لهم، واستعاذت بهم، كانت بمنزلة أكابر الناس إذا خضع لأصاغرهم ليقضي له حاجته».

ولعل بعض الناس يتساءل كيف يكون مثل هؤلاء عبّاداً للشيطان وهم يصلون معنا ويصومون ويحجون ويكتبون آيات من القرآن في رقياهم؟!. والجواب على ذلك أن فريقاً من هؤلاء السحرة مخدوعون بمن يأتونهم من الشياطين حيث أنهم يظنون بأنهم ملائكة سخروا لخدمتهم، أما الفريق الآخر فيعلمون حقيقة أمرهم ويصرون على مشاركة الشياطين في الكفر والعناد، ويتظاهرون بلباس الورع والصلاح ليلبسوا على الناس أمر دينهم وهذه من الإيحاءات الشيطانية التي تملى عليهم. وهذا النوع كثير في بني آدم في هذه الأيام وخصوصاً بين طبقات التجار والصناع وبعض الحكام.

ولئن كان نبي الله سليمان الملك الصالح عليه السلام قد سخرت له بعض عوالم الكون من الجن والإنس والطير والريح، بسبب طاعته لله واذعانه لشريعته فإنّ اكثر ملوك الدنيا يفتقرون إلى مثل هذا التسخير بسبب بعدهم عن منهج الله. ولذلك تراهم جميعاً يبحثون عن شتى الوسائل التي يظهرون بها عظماء فيختار كل واحد منهم ساحراً أو زمرةً من السحرة يستعين بهم في إدارة شؤون العباد والبلاد.

يروى أن أحد ملوك الكلدانيين أمر رئيس السحرة في قصره لعمل السحر اللازم لهزيمة جيوش القرطاجيين، وكان من عادتهم ذبح طائر وعمل السحر بدمه، فرفض الطائر يومها تناول الطعام والشراب ويعني ذلك عندهم أن الأمر ليس بصالحهم، وبالطبع لم يذبح الساحر الطائر، ولم يلبي طلب الملك، فكان جزاؤه القتل! وهزمت جيوش الملك أمام جيوش القرطاجيين.

ويذكر المؤرخون أن راية كسرى فارس كان مكتوب عليها بماء الذهب الوفق المئيني العددي في أوضاع فلكية خاصة من تعاليم السحرة، والغرض منها ضمان نصرة جيوش الفرس في جميع حروبهم مع أعدائهم، ولكن هذه الراية لم تنفعهم في معركة القادسية أمام جحافل الجهاد الإسلامي، ووجدت مقطعة بعد انتهاء الحرب. وانتصار جيوش الموحدين المدعومين بتأييد الملائكة وما حدث من مواجهة بين نبي الله موسى عليه السلام وسحرة فرعون لهو أكبر دليل على استخدام السحر عند الفراعنة، وكان ملكهم إذا استعصى عليه أمر استدعى كبار السحرة وطلب منهم المعونة اللازمة لتثبيته على عرش الحكم!. إلا أنهم باءوا بالفشل أمام نبي الله موسى عليه السلام المدعوم من الله مالك الملك وقاهر الجبابرة.

أما عن الكهانة عند العرب قبل الإسلام فقد كان كهان العرب منتشرين في الجزيرة العربية، وكانت لهم مكانة كبيرة عند العرب، يلجأون إليهم ويستشيرونهم في معضلات الأمور، وكانوا يسألونهم عن المغيبات.

وذكر الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه تعليقاً[1] عن جابر رضي

(١) فتح الباري (٨/٢٥١).

الله عنه «كان الطواغيت التي يتحاكمون اليها في جهينة واحد، وفي أسلم واحد، وفي كل حي واحد، كهان ينزل عليهم الشيطان».

وكانوا يتعاطون الطب ومداواة المرضى، إضافةً إلى علم المغيبات، وقد أثبت ذلك في قول أحد شعراء العرب.

جعلت لعرّاف اليمامة حكمهُ وعرّاف نجدٍ إن هما شفياني

فقالا شفاك الله، والله مالنا بما حملت منك الضلوعُ يدان

وكان سطيح واحداً من أبرز الذين اشتهروا في الكهانة ويذكر ابن كثير في البداية والنهاية[1]، قصة كسرى مع سطيح الكاهن فيقول «أن إيوان كسرى ارتج، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاصت بحيرة ساوة، ورأى الموبذان إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة، وانتشرت في بلادهم. فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك، فتصبر عليه تشجعاً، ثم رأى أن لا يستر ذلك عن مرازبته، فجمعهم، ولبس تاجه، وجلس على سريره ثم بعث اليهم، فلما اجتمعوا عنده قال: أتدرون فيم بعثت إليكم؟ قالوا: لا إلا أن يخبرنا الملك.

فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران، فازداد غماً إلى غَمِّه، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله، فقال الموبذان: وأنا -أصلح الله الملك- قد رأيت هذه الليلة رؤيا، ثم قص عليه رؤياه في الإبل. فقال أي شيء يكون هذا يا موبذان؟ قال حدث يكون في ناحية العرب، وكان أعلمهم من أنفسهم.

---

(١) (١٦٢/٢).

وتذكر القصة أن كسرى أرسل إلى النعمان بن المنذر فوجّه اليه النعمان رجلاً عليماً اسمه عبد المسيح، فلمّا قصّ عليه كسرى ما رأى هو والموبذان، أشار باستخبار سطيح فأرسله كسرى إليه، فأدركه الرسول وهو في حال الإحتضار، فاستعلمه عبد المسيح عما جاء من أجله بأبيات من الشعر، فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول: عبدالمسيح على جمل مشيح، أتى سطيح وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك ساسان، لإرتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعاباً، تقود خيلاً عراباً، قد قطعت دجلة، وانتشرت في بلاده.

يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة وظهر صاحب الهراوة وفاض وادي السماوة، وغاصت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً. يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات، وكلّما هو آت آت ثم قضى سطيح مكانه».

ولا يختلف ملوك العصر الحديث عن نظرائهم في العصر القديم من حيث استخدام السحرة والكهان، فقد كشف «كتاب ريجان» -وهو رئيس سابق لأعظم دولة في العالم- على أنه لم يكن وحيداً بين رؤساء الدول في استشارة الكهنة والمنجمين في السياسة الداخلية والخارجية، بل إن معظم رؤساء دول العالم بمن في ذلك العرب والمسلمين يلتزمون هذا الطريق وخصوصاً في سفرهم وتنقلاتهم خوفاً من الإغتيالات!.

وقال عميل سابق لوكالة المخابرات المركزية الأميركية في رسالة إلى صحيفة «التايمز» أن الوكالة حاولت التأثير على زعماء العالم الثالث بتنبؤات

مزيفة.

وكتب (مايلز كوبلانر) الذي أشرف على قسم العمليات العالمية أن رئيس جمهورية غانا ورئيس جمهورية أندونيسيا والزعيم الألباني أمكن التأثير عليهم بنجاح من خلال خرائط للنجوم أعطتها لهم وكالة المخابرات المركزية الأميركية.

وقد أصدر مدير المخابرات المركزية الأميركية في ذلك الوقت أمراً بإغلاق ذلك القسم عندما علم أن خرائط مماثلة كانت في طريقها إلى موظفي الرئاسة في البيت الأبيض.

وفي رسالة أخرى إلى صحيفة التايمز قال خبير الدعاية البريطاني (سير بيتر تينانت) أنه استخدم عمل المنجمين لكي يدمر القوات الألمانية في النرويج والدانمرك خلال الحرب العالمية الثانية.

وقد تضمنت نشرات «إسأل النجوم» -التي وزعها عملاء بريطانيون- تعليمات عن أمراض مزودة مثل التيفوئيد والدوزنتاريا لتوقف الجنود الألمان عن الخدمة في الجبهة الروسية.

ويذكر الباحثون المعاصرون أن من أهم ما شغل (هتلر) -عندما اجتاحت جيوشه (بولندا) في الحرب العالمية الثانية- أن يعتقل رجلاً (بولندياً) يدعى (وولف ميسينج)، ويأتي به إلى برلين حياً أو ميّتاً. كان قد اشتهر عن هذا الرجل أنه يتمتع بقوى خارقة كوسيط روحي وعراف متنبئ، وكان قد تنبأ (لهتلر) قبل اجتياح بولندا بانه سيخسر الحرب في النهاية، ويلقى نهايةً سيئة، ولما كان (هتلر) من أشد المتطيرين الذين يؤمنون بالعرافة والتنجيم لذلك فقد

أسرها في نفسه وعزم على الانتقام من (ميسينج) عندما يقع يوماً في قبضة يده. واستطاع (ميسينج) أن يهرب في آخر لحظة، ويلجأ إلى موسكو، ولكنه كان كالمستغيث من الرمضاء بالنار، إذ نجا من قبضة دكتاتور ليقع في قبضة دكتاتور آخر هو (ستالين) الرهيب هذه المرة.

فقد سمع الدكتاتور السوفيتي بحكايته وقرر أن يختبر قواه (التليباثية) وحدد بنفسه الإمتحان.. أن يستخدم (ميسينج) قواه المزعومة في سرقة بنك واختار (وولف ميسينج) بنكاً كبيراً في موسكو، لا يعرفه فيه أحد، وفي اليوم المحدد دخل (ميسينج) البنك بخطوات ثابتة، وتقدم إلى الصراف الذي يجلس خلف نافذته الزجاجية وقدم اليه ورقة بيضاء منتزعة من دفتر مدرسي ووضع أمامه حقيبة فارغة مفتوحة وأمره (تليباثياً) أن يصرف له مبلغ ١٠٠ ألف روبل. ونظر الصراف إلى الورقة وفحصها جيداً لم يشك لحظة في أنها (شيك) صحيح... ولم يلبث أن فتح خزانته وراح يخرج منها رزم (البنكنوت) ويضعها في الحقيبة حتى عدّ ١٠٠ ألف روبل بالتمام والكمال.

وحمل (ميسينج) الحقيبة وخرج من البنك، وهناك اطلع ستالين على النقود مثبتاً نجاحه في سرقة البنك...

وبعد ذلك عاد إلى الصراف مرة أخرى، وبدأ يعيد إليه رزم (البنكنوت) ودهش الصراف وأخذ ينظر اليه، وإلى النقود وإلى الورقة البيضاء الخالية أمامه، ثم سقط على الأرض مصاباً بأزمة قلبية....

وفي امتحان آخر طلب ستالين من هذا الساحر أن يدخل قصر الكرملين بدون إذن خطي مسبق، وبالفعل استطاع (ميسينج) دخول القصر وكلما مر

على زمرة من الحرس وضعوا بنادقهم جانباً وأدوا له التحية العسكرية حتى وصل إلى غرفة مكتب ستالين فقرع الباب ودخل فدهش ستالين ولما سأله عن الكيفية التي دخل بها عليه أجابه قائلاً لقد خيل للحراس أنه مدير المخابرات السوفيتية الذي كان هو الوحيد الذي لا يحتاج إلى تصريح للدخول على ستالين!.

وهذا هو حال الحكام الجاهلين قديماً وحديثاً الذين يشتركون مع السحرة والكهنة والعرافين في القبلة والكفر والفساد.

فما حكم الإسلام حيال السحرة والكهان؟.

يقول الإمام النووي رحمه الله؟ يحرم فعل السحر بالإجماع، ومن اعتقد اباحته فهو كافر»[1]. وهذا مذهب الشافعية فالساحر يقتل كفراً إذا تكلم بالكفر واعتقد فيه، ويقتل قصاصاً إذا لم يعتقد بالكفر ولكن قتل مسلماً بسحره وإذا تاب قبلت توبته.

أمّا مذهب الأحناف فيقول بقتل الساحر كفراً ولا يستتاب. وكذلك عند المالكية وفي الرواية المعتمدة عند الحنابلة، يقول ابن قدامة المقدسي رحمه الله «تَعَلُّمُ السحر وتعليمه حرام لا نعلم فيه خلافاً بين أهل العلم، قال أصحابنا: يكفر الساحر بتعلمه وفعله سواءٌ اعتقد تحريمه أو إباحته»[2] وعلى هذا الأساس فاني أتوجه إلى ولاة أمر المسلمين خاصة، وإلى المسلمين عامة الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ صلّى الله عليه وسلّم نبياً

(١) روضة الطالبين (٩/٣٤٦).

(٢) المغني (٨/١٥١).

ورسولاً، أن يتقوا الله في الأقوال والأفعال ويلتزموا جميل الخصال ويحذروا السحرة وكل مفترٍ دجال. والحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم يقول: «مَنْ أتىَ عَرَّافاً أوْ كاهناً فصدّقه بمَا يَقولُ، فقدْ كَفَرَ بما أنزلَ على مُحَمَّد»[1]. وفي رواية أخرى «مَنْ أتى عرّافاً فسألهُ عن شيءٍ، لمْ تقبل لهُ صلاةٌ أربعينَ يَوْمَاً»[2].

فمن فعل شيئاً من ذلك فليتب إلى الله فإن التوبة تجب ما قبلها كما أن الإسلام يجب ما قبله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له....

اللهم جنبنا السحر والسحرة والكهانة والكهنة والشعوذة والمشعوذين واجعلنا من التوابين واجعلنا من المتطهرين وادخلنا برحمتك في عبادك الصالحين. آمين....

(١) رواه أحمد والحاكم. وسنده صحيح.

(٢) رواه أحمد ومسلم.

(٤)
الكذب وإنقاذ النفس من الهلاك

ما زلنا نستمتع بالجلوس على مائدة الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم، نأكل وجباتها وننعم ببركاتها، ووجبة هذه الحلقة تتضمن الفائدة الرابعة التي نستفيدها من القصة التي يقول فيها المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم متمماً. «... فبعث إليه غلاماً يعلمه وكان في طريقه اذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد اليه، فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر...».

الحق والباطل، والخير والشر، والطيب والخبيث، كل ذلك من الأضداد التي لا تلتقي في أي عصرٍ وفي أي مصر فالكافر يعبد الشيطان ويعصي الرحمن، والمؤمن يعبد الرحمن ويعصي الشيطان، فلا توافق بين الأرواح ولا تعايش بين الأجساد. فالمؤمن يعيش في المجتمع الجاهلي الكافر خائفاً يترقب، والكافر أو الفاجر يعيش في المجتمع المسلم الذي تسوده التعاليم الإلهية خائفاً يترقب، ولكن شتان بين الثرى والثريا، وشتان بين من يموت شهيداً ومن يموت طريداً.

لقد اختار الملك غلاماً من رعيته ليتعلم السحر ويشارك أمته في عبادة الشيطان، ولكن يأبى الله لهذا الغلام إلا أن يكون موحداً وداعياً إلى عبادة

الواحد الديّان. فيتعرف الغلام على راهب يعبد الله ولا يشرك معه في العبادة أحداً.. إنه راهب من الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لاَ نُؤمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ﴾[1]. أي أن الرهبان الذين لا يؤمنون برسالة محمد صلّى اللهّ عليه وسلّم كما جاء مكتوباً عندهم في الإنجيل ويصرّون على عبادة الصلبان، فأولئك كافرون مكذبون لا يقبل الله منهم عملاً ولهم عذاب الجحيم.

لقد تعرّف على ذاك الراهب الطيب الذي يحب الطيبات ويكره الخبائث، وبدأ يتلقى العلم على يديه، وصار يمر على الراهب في الذهاب والإياب في الفترة التي خصصت لتعلم السحر، وقد شغف الغلام بكلام الراهب مما جعله يتأخر أحياناً عنده، ونتيجةً لذلك تعرض للضرب من قبل أهله إذا تأخر أثناء الإياب، ومن قبل الساحر إذا تأخر أثناء الذهاب. فشكا أمره إلى الراهب، فقال له: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر. وهذا بلا شك كذب، والمؤمن لا يكذب، فكيف يكون ذلك؟

أقول: الكذب ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الكذب الجائز وهو شبيه ما جاء في القصة.

---

(١) سورة المائدة الآيات (٨٣-٨٦).

القسم الثاني: الكذب المحرم والمذموم ويتضمن الكذب على الناس عامةً، والكذب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خاصةً.

ولما كان الأمر يحتاج إلى ايضاح، وجدت لزاماً عليَّ أن أدعم مقالتي بالأدلة الشرعية الناصعة من كتاب الله ومن سنة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم وأبدأ **بالقسم الأول**:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ. مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] الآية الأولى: تعني القسم المذموم من أقسام الكذب، والآية الثانية تعني القسم الجائز.

لقد لقي المسلمون الأوائل في مكة من الأذى مالا يطيقه إلا من نوى الشهادة، وآثر الحياة الأخرى، ورضي بعذاب الدنيا عن العودة إلى ملة الكفر والضلال. والنّص هنا يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد إيمانه، لأنه عرف الإيمان وذاقه، ثم ارتد عنه إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة. فرماهم بغضب من الله، وبالعذاب العظيم، والحرمان من الهداية؛ ووصمهم بالغفلة وانطماس القلوب والسمع والأبصار، وحكم عليهم بأنهم في الأخرة هم الخاسرون... ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة، وحساب للربح والخسارة. ومتى آمن القلب بالله فلا يجوز أن يدخل عليه مؤثر من مؤثرات هذه الأرض، فللأرض حساب، وللعقيدة حساب ولا يتداخلان وليست العقيدة هزلاً،

(١) سورة النحل، الآيتين (١٠٥-١٠٦).

وليست صفقة قابلة للأخذ والرد فهي أعلى من هذا و أعز. ومن ثم كل هذا التغليظ في العقوبة، والتفظيع للجريمة.

واستثنى من ذلك الحكم الدامغ من أكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان. أي من أظهر الكفر بلسانه نجاة لروحه من الهلاك، وقلبه ثابت على الإيمان مرتكن إليه مطمئنٌ به.

وضمن هذا السياق وحول هذا الموضوع يقول الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم: «لم يكذب ابراهيم النبي -عليه السلام- قط إلا ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيم﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هَذَا﴾ وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار، ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم انك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنّك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، فأتاه فقال: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها، فأتي بها، فقام ابراهيم إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك، ففعلت، فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي، فلك الله أن لا أضرك ففعلت، وأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنّما جئتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي، وأعطها هاجر، فأقبلت تمشي، فلما رآها ابراهيم انصرف فقال لها: مهيم، قالت: خيراً، كف الله يد الفاجر وأخدم خادماً، قال أبو هريرة: «فتلك أمكم يابني ماء

السماء»[1].

وهذا حال ملوك الدنيا غالباً، يحكمون بشريعة الغاب، القوي يأكل حق الضعيف، والغني يستعبد الفقير، وبطانة السوء تتزلف من الحاكم بضحايا الأبرياء حتى ولو اقتضى ذلك سفك الدماء وقتل الأنبياء وإهانة العلماء وهتك أعراض الحنفاء... ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[2]، وليس المعنى محصور على الملوك فحسب، وإنما يشمل أيضاً بطانة السوء من الجند والحاشية والخدم.

فشعر خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام بخطورة الموقف، فسارع إلى التورية في الكلام من أجل انقاذ نفسه من الهلاك، وهذه رخصة شرعت لكل مؤمن مستضعف إلى يوم القيامة.

وينتقل المشهد إلى سارة عليها السلام تلك المرأة المؤمنة التي وقفت أمام جبار وملك خوار غلبت عليه نزعة الشهوة فأراد أن يمسها فَشُلَّت يده وتوقفت عن الحركة، فاستسلم للقوة التي لا تقهر... إنها قوة الله التي تدخلت في اللحظة الحرجة لنصرة المرأة المؤمنة المستضعفة، فقال لها إدعي الله أن يطلق يدي ولا أضرّك، ففعلت إلاّ أن الغرور غلب على الملك ثانية وهمّ بها فقبضت يده فاستسلم، ثمّ عاود الكرة ثالثة فكانت كسابقتيها فأطلق سارة عليها السلام وأعطاها هاجر خادماً.

لقد كان استسلام الملك مؤقتاً وذلك أثناء وجود الخطر فلما زال عنه عاد

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) سورة النمل، الآية (٣٤).

فكفر وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[1].

ومن أشكال الكذب الجائز ما جاء في الحديث الصحيح عن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول: «ليسَ الكذّابُ الّذي يصْلحُ بينَ النَّاسِ فيقولُ خيراً أو ينمّي خيْراً». وفي رواية قالت: «ما سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يرخص في شيءٍ من الكذب إلاّ في ثلاث: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: لا أعدّهُ كذباً: الرجلُ يصلحُ بينَ النَّاس، ويقولُ قولاً يريدُ به الإصلاحَ، والرَّجل يقولُ في الحربِ، والرجلُ يحدِّثُ امرأتهُ، والمرأةُ تحدِّث زوْجهَا»[2].

أما الإصلاح بين المتخاصمين فيجوز فيه الكذب لمن أراد الإصلاح بينهم وذلك بأن يذهب إلى الطرف الأول فيخبرهم بأن الطرف الثاني يظهر محبته لهم ويوقرهم ويحب لقاءهم في أي وقت وأن الذي حدث بينهم من دواعي الخصام كان بسبب النفس الأمّارة والشيطان، ثم يذهب إلى الطرف الثاني فيقول لهم من حسن الكلام مثل ما قال للطرف الأول، علماً أن أحد الطرفين أو كليهما لم يقل شيئاً من ذلك.

وأما عن مقالة الرجل في الحرب، فيجوز فيها الكذب لأن الحرب خدعة. كذلك فعل الصحابي الجليل نُعيْم بن مسعود الغطفاني رضي الله عنه

(١) سورة الزمر، الآية (٨).
(٢) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي.

حيث استطاع بحنكته أن يشرد الأحزاب ويفك الحصار عن المسلمين وهذا من توفيق الله له. لقد كان نعيم ذا مكانة مرموقة بين أهله وعشيرته، وكان ذا صلة وطيدة مع أسياد بني قريضة فأتى زعيمهم وحدثه وخوفه من الأحزاب بأنهم سوف يتركونه وقومه في ساحة القتال مع محمد، واقترح عليه أن يطلب منهم سبعين رجلاً رهينة ليضمن استمرارية الحصار، فاقتنع كعب بنصيحة نعيم. ثم رجع نعيم إلى الأحزاب وقال لأبي سفيان أن اليهود قد ندموا على نقض العهد مع محمد وسوف يطلبون رهائن منّا ثم يسلمونها إلى المسلمين وذلك ليقتلوهم إشارةً على صدق النوايا، فصدقه أبو سفيان وطلب من الأحزاب أن يعلموا اليهود بقتال محمد من الغد، فرفضت يهود بني قريظة هذا الأمر وطلبت رهائن. عندئذٍ نجحت خطة الصحابي الجليل وكانت سبباً في هزيمة الأحزاب وكفاية المسلمين من شرورهم.

ومن الكذب الجائز أيضاً ما يدور من الحديث بين الرجل وزوجته من إظهار الود والمحبة والوعد بما لا يلزم ونحو ذلك. مثل أن يعد زوجته بطعام أو كسوة وينوي إن قدر على ذلك لبّى، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها. أما المخادعة في منح حق عليه أو عليها أو أخذ ما ليس له أولها فهو حرام باجماع المسلمين.

وكذلك لا يجوز أن تكذب المرأة على ضرتها وذلك للنهي الصريح الذي جاء في الحديث عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها وعن أبيها أن امرأةٌ قالت يا رسول الله إن لي ضرّة، فهل عليّ جناح انْ تَشَبَّعْتُ من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «المتَشَبِّعُ بما لمْ يُعْطَ

كَلابسِ ثَوْبَيْ زُور»[1].

قال الإمام ابن الأثير[2]: «المتشبع: هو الذي يتشبه بالشبعان وليس به، وبهذا المعنى استعير للمتحلي بفضيلة لم يرزقها، وليس من أهلها، وإنما شبه بلابس ثوبي زور، أي ثوبي زي زور، وهو الذي يُزَوِّر على الناس، يتزين بزي أهل الزهد، ويلبس لباس أهل التقشُّف رياء. أو أنه يظهر أن عليه ثوبين، وإنما هو ثوب واحد، قال الأزهري: هو أن يخيط كماً على كم فيظهر لمن يراه أن عليه قميصين، وليس عليه إلا قميص واحد وله كُمَّان من كل جانب. أ.هـ.

القسم الثاني: ويشمل الكذب المحرم والمذموم

يقول الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم: «إنّ الصدقَ يهْدي إلى البر، وإنَّ البرَّ يهدِي إلى الجَنَّة وإنَّ الرجلَ ليصدقُ حتَّى يكتَب عند اللَّه صدِّيقاً، وإنَّ الكذب يهْدي إلى الفُجور، وإنَّ الفجورَ يهدِي إلى النّار وإنَّ الرَّجلَ ليكذبُ حتَّى يكتبَ عنْد اللَّه كذَّاباً»[3].

ولا يجتمع كذب وإيمان لأنّ الكذب شارةٌ من شارات النفاق، وأهل النفاق في الدرك الأسفل من النار. وإن من أعظم الكذب هو الكذب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم القائل: «لا تكذبُوا عليَّ، فإنَّه منْ كذبَ عليَّ يلجُ النارَ».[4].

وفي رواية لمسلم قال: «منْ حدَّث عنِّي بحديثٍ يرَى أنَّه كذبٌ، فهوَ

(١) رواه الشيخان وأبو داود والنسائي.
(٢) انظر جامع الأصول، (١٠/٦٠).
(٣) متفقٌ عليه.
(٤) رواه الشيخان والترمذي.

أحدُ الكاذبينَ».

وعند مسلم أيضاً عن مجاهد رحمه الله قال: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس رضي الله عنه، فجعل يحدث ويقول: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «وجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه، ولا ينظر إليه، فقال بشير: يا ابن عباس مالي أراك لا تسمع لحديثي، أحدثك عن رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم، ولا تسمع؟ فقال ابن عباس: إنا كنا مرَّةً إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه باسماعنا، فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف».

وفي رواية: «فأما إذ ركبتم كل صعبة وذلول، فهيهات». قال الإمام ابن الأثير في جامع الأصول[1] «وأراد بالصعبة والذلول: شدائد الأمور وسهولها، والمراد: أنه ترك المبالاة بالأمور والإحتراز في القول والفعل».

أتدرون من الذي يسأل ابن عباس رضي الله عنهما فرد عليه بمثل ما ترون؟!. وهل تعرفون في أي زمان كان ذلك؟.

أما السائل فهو بشير العدوي، من ثقات التابعين وهو من الطبقة الثانية، خرج أحاديثه البخاري ومسلم والأربعة أصحاب السنن. أما الزمان فكان في القرن الأول خير القرون، ومع ذلك نرى الصحابيُّ الجليل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما يتحرج من الإصغاء إليه وهو يحدث عن رسول اللّه صلّى الله

(١) (١٠/٦١٢).

عليه وسلّم والسبب أنه نقل كلام النبي صلّى الله عليه وسلم من غير أن يذكر الواسطة في السماع بينه وبين الرسول صلّى الله عليه وسلّم وهذا يعد من الإرسال في مصطلح المحدثين، وكأن ابن عباس رضي اللّه عنهما ينكر عليه الإرسال وعدّ ذلك من عدم الاحتراز في القول علماً أن بشير يروي عن ربيعة الجرشي وشداد بن أوس وأبي الدرداء وأبي ذر الغفاري وأبي هريرة رضي الله عنهم جميعاً.

فماذا نقول عن رواة ومحدثي هذا الزمان الغابر؟!. ولماذا نجد الكذب في أحاديث كثيرٍ ممن يدّعون محبة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم؟

وهل التقول على رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم ما لم يقله من الخير أم من الشر؟ وهل يجوز ذلك في الترغيب والترهيب؟ وما حكم الذي يتعمد الكذب في الحديث في الأمور الاعتقادية؟

أما الذين يحدثون عن رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم في هذه الأيام، فليسوا بأفضل ولا أعلم ولا أتقى ولا أورع ولا أخشى لله من أولئك الخيرة من الصحابة والتابعين الذين حدثوا عنه صلّى اللّه عليه وسلم في القرن الأول وهو خير القرون، ولذلك كان واجباً على كل مسلم الاحتراز في القول لمن يحدث والاصغاء لمن يستمع لاحاديث المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم حتى لا يقع في المحظور. ولا يتم ذلك إلا بالتأكد من صحة الحديث قبل التحدث به وذلك من خلال مطالعة كتب الأئمة الأعلام في هذا المجال. ولا يغتر المسلم بشهرة بعض الخطباء، فإن العبرة ليست بكثرة الحديث ولا ببلاغة الخطيب، انما العبرة فيما ينقله من صحيح الأحاديث، لأن كلام المصطفى صلّى الله

عليه وسلّم فيه نور وعليه شارات النبوة، حلو المذاق لذيذُ الطعم طيب الرائحة يميزه أهل الخبرة من سائر كلام البشر، ولا يعرف ذلك إلا من ارتقى في سلّم محبة جناب الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم.

أما الذين يدّعون محبته صلّى اللّه عليه وسلّم ويعصونه ولا يطيعونه وذلك بترك العلم واتباع اقوال المشايخ المخالفة لهديه صلّى الله عليه وسلّم، فهؤلاء كاذبون في ادعائهم ويصدق عليهم قول الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم: «كل الناس يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[1].

ولقد حاول اليهود الأخباث التظاهر في دخول الإسلام وذلك للنيل منه وتحطيمه من الداخل وذلك بوضع الأحاديث المكذوبة وتحريف الكلم عن مواضعه، كما فعلوا في دين المسيح عليه السلام من قبل، إلا أنّ الله حفظ هذا الدين وسخر له من الرجال من يذودون عنه ويحفظونه من شر الأشرار وكيد الفجار ومكر كل معاند جبار. لقد كانوا رجالاً من المصطفين الأخيار حفظوا لنا سنة المصطفى المختار صلّى الله عليه وسلّم ودونوها في كتبهم فهي تشع بالأنوار جلية في الليل كما هي في النهار لا يزيغ عنها إلا هالك من أهل النار!.

يقول الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم : «منْ تَقَوَّلَ عليَّ مَا لمْ أقلْ، فليتبوّأ مقعدَهُ من النارِ»[2].

وعندما نقول هذا حديث ضعيف أي أنه حديث ملوث فلا يجوز تداوله

(١) رواه البخاري.

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد وابن ماجه والطبراني.

بين الناس ومن تداوله أو حدّث به وهو يعلم ضعفه فقد أفسد ولم يصلح وذلك لأنه تقوّل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ما لم يقله، وإن كان ينوي خيراً فقد حصد شراً لأن من شروط قبول العمل صحة النية وصحة العمل فإذا فسدا أو أحدهما فسد العمل كله. والحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم لم يميز بين الكذب عليه في فضائل الأعمال والكذب عليه في سائر أمور الشريعة، لأن الكذب حرام إلا في الحالات الثلاث التي رخص فيها كما بينا في موضعه.

ولقد اشتهر بين العوام جواز الاستشهاد بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، وكأن الأمر متفق عليه بين أهل العلم وليس هو كذلك بل إن جهابذة أهل العلم كالبخاري ومسلم وابن معين وابن حزم وغيرهم لا يرون العمل في الحديث الضعيف في الترغيب ولا في الترهيب، وحتى العلماء المجوّزون لذلك وضعوا شروطاً لقبول الحديث الضعيف ولعلّ العلاّمة أحمد شاكر قد أجاد وأحسن عندما قال: (وأما قول أحمد وعبد الرحمن بن مهدي وابن المبارك) إذا روينا في الحلال والحرام شدّدنا، وإذا روينا في الفضائل تساهلنا فإنما يريدون بالتساهل -والله أعلم- الأخذ بالحديث الحسن الذي لم يصل إلى درجة الصحة، فإن الاصطلاح في التفرقة بين الصحيح والحسن مستقرأ واضح بل كان أكثر المتقدمين لا يصف الحديث إلا بالضعف أو الصحة فقط).أ.هـ.

وإذا كان أهل العلم قد اختلفوا في جواز رواية الحديث الضعيف في فضائل الأعمال وهو الحديث الحسن في مصطلح الحديث فيما بعد، فإنهم متفقون ومجمعون على تحريم روايته في أمور الإعتقاد أو التشريع، ومع ذلك

نرى أن بعض من يدّعون محبة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم يتشدّقون بكثرة الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم وفيه من التقول والكذب على المحبوب مالا يخفى على طلبة العلم فضلاً على العلماء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم: «يكونُ في آخر الزمانِ دجالونَ كذابونَ، يأتونكمْ منَ الأحاديثِ بما لمْ تسمعُوا أنتمْ ولا آباؤكمْ، فإياكمْ وإياهمْ، لا يضلُّونكمْ ولا يفتنونكُمْ»[1].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إنَّ في البحْرِ شياطين مَسجونَة أوثقها سليمانُ، يوشكُ أنْ تَخرجَ فتقرأ على الناسِ قرآناً».[2]

وقد تأول الإمام النووي رحمه الله في الشرح معنى الحديث حيث قال إن الشياطين تقرأ على الناس ما يشبه القرآن وتقول لهم أنه قرآن وهو ليس كذلك. قلت: ويحتمل أنهم يقرءون القرآن ولكن لا يجاوز التراقي كما هو الحال عند شياطين الإنس، يدّعون حب الدين والإيمان وهم ليسوا من أهله، وذلك ليحصلوا على مآربهم في مجتمع يغلب على أفراده حب الدين ونبذ الشعوذة.

وإن مثل هذه الشياطين تتنزل في هذه الأيام على بعض الجهلة فتقرأ عليهم قرآناً وتقول لهم بأنها من ملائكة الرحمة نزلت عليهم بأمر الله لتخدمهم في علاج المرضى بالقرآن والأعشاب!.

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم في المقدمة.

لقد حضرت جلسةً من جلسات القوم، فأضجعوا المريض على الأرض وستروا جسده كاملاً بغطاء، وجلست المعالجة مع أخت لها عند قدمي المريض، وتوزع والدها وإخوانها المصاحف، وأمرت المعالِجة كلاً منهم بقراءة سورة معينة من القرآن وبصوت مرتفع وفي وقت واحد، ثم كان إلى جانبها مسجل فكبست مفتاح التشغيل فإذا به يسمعنا قرآناً، ومع كل هذه الضوضاء بدأت باستحضار ملائكة الرحمة كما تدّعي، فتمتمت قليلاً ثم قالت يا الله!.

فحصل لها التلبُّس وكذلك أختها، وكان بيد أختها قلم ودفتر تكتب فيه تلقائياً بايحاء من ملائكة الرحمة!. واعلموني فيما بعد أن الكاتبة هي التي تشاهد ما يجري في الخفاء أما المعالجة فهي تتبع ارشادات اختها في عملية استئصال المرض أو السحر من جسم المريض. ولما انتهينا من العملية الجراحية الوهمية، قالت المعالجة لأبيها: هأنا حشرتهم -تعني الجن- لك في هذا المكان وحددته، فادعهم إلى الإسلام، ففعل الأب ما طُلِبَ منه وأسلمت الجِنّة كما يقولون... وبعد ذلك قالت لي المعالجة ياشيخ سل ما تريد قبل أن ينصرفوا، ففعلت وكان من ضمن ما قالوا حسب ما نقلته لي المعالجة أن في السماء الدنيا باباً يصعدون منه إلى« السماوات ولا توجد عليه حراسة من الملائكة، فقلت لهم كيف يكون ذلك والله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾[1] فقالوا على لسانها عندنا من العلوم أكثر مما عندكم في القرآن حيث أننا نتبع أيضاً شريعة سليمان عليه السلام فقلت لهم

(١) سورة الجن، الآيتان (٨-٩)

أعتقد أنكم ما زلتم على الكفر!.

ثم قلت للمعالجة سَلي ملائكتك أين يعيشون؟ فقالت يقولون في الجنة، فقلت وماذا يأكلون ويشربون فيها؟ فقالت: يقولون إنهم يأكلون كل شيء ويشربون من أنهارها فقلت لها يا أختاه إن الملائكة لاتأكل ولا تشرب وليس عندهم شهوة بهيمية، إنما هم أرواحٌ نورانية وعبادٌ مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.... وإن الذين يأتونك واختك ليسوا بملائكة وإنما هم شياطين يقرءون قرآناً كما أخبر النبي المصطفى صلّى الله عليه وسلّم فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم.

لقد كذب الشيطان عندما ادّعى لنفسه الخيرية على آدم عليه السلام، لأن الخيرية لا تتأتى بالتفوق الخَلْقي وإنما يحصلُ عليها العبد بالتفوق الديني والخُلقي.

وكذلك الحال بالنسبة لشياطين الأنس الذين يدّعون الخيرية لأنفسهم بسبب الجاه والثراء والنسب، وهم بعيدون كل البعد عن المنهج الإلهي القويم، لا بل ويحاربون أتباع النبي الهاشمي محمد صلى اللّه عليه وسلم ويضيقون عليهم مناكب الحياة المعيشية. إن مثل هؤلاء القوم لا يزدا دون بادعاءاتهم من اللّه إلا بُعداً، وإنّ أكاذيبهم تهدي إلى الفجور والعصيان ومن ثمَّ تقذف بهم في النيران وهيهات لهم أن يجدوا رائحة الجنان. أعاذنا اللّه من مصير أهل الطغيان وجنَّبنا الكذب والبهتان وكل ما يغضب الرحمن...

(٥)
كرامات الأولياء

إن الإستماع لأحاديث المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم نعمة يعجز عن شكرها اللسان، وكرامة لا يقدرها إلا ذوو الإيمان وفي هذه الحلقة نتناول الفائدة الخامسة التي امتن الله علينا بجنيها من القصة التي ساقها الينا الصحابي الجليل صهيب الرومي رضي الله عنه نقلاً عن الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم حيث يقول: «... فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس....».

وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[1] فلئن كانت الشياطين تخدم أولياءها من الإنس، تطير بهم في الهواء أو تأخذهم في جوف الأرض أو تغوص بهم في الماء أو تسترق لهم بعض أخبار السماء إلى غير ذلك من الخوارق التي يضحكون بها على أهل الجهالة والغباء مقابل الكفر بالله واتخاذهم من دونه شركاء في السمع والطاعة والولاء!.. فإن الله تعالى قد سخّر مخلوقاته كلها لخدمة عباده الأوفياء.

لقد رأى الغلام دابّةً لم يكشف الحديث عن ماهيتها ولا داعي للخوض

(١) سورة الأنفال، الآية (١٧).

في تفاصيل ذلك مما لم يثبت في الأخبار الصحيحة، فالمهم أنها دابة أخافت الناس وأغلقت عليهم الطريق. فاستنح الغلام هذه الفرصة ليعرف الحق من الباطل، فدعا الله تعالى أن يحقق له ما يريد، فحمل حجراً صغيراً يتناسب مع حجمه ورمى به الدابة فقتلها!

والقارئ الذي يتمعن في فحوى القصة يجد أن الدابة كانت من النوع الذي لم يقوى على قتلها كل الحاضرين وقتئذٍ، قويهم وضعيفهم ،كبيرهم وصغيرهم ، ذكرهم وأنثاهم ... وكذلك الأحجار فقد كانت تملأ المنطقة لأنه لم تكن هناك طرق معبدةٌ فإذن العمل الذي قام به هذا الغلام يعتبر خارق للعادات وفوق ماعند البشر من الطاقات وهذه هي الكرامة التي يكرم الله بها عباده الصالحين الذين يحبون الطيبات ويكثرون من الطاعات ويكرهون الخبائث ويجتنبون المنهيات.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إن الله قال: «منْ عادى لي وليّاً فقدْ آذنتهُ بالحرْبِ. وَمَا تقرَّب إليّ عبْدي بشيءٍ أحبّ إليَّ مما افترضتُه عليْه ومَا يزالُ عبدي يتقربُ إليّ بالنَّوافلِ حتى أحبَّه، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ وبصرهُ الذي يبصرُ به ويدَهُ التي يَطِشُ بها، ورِجْلَهُ التي يمشي بِها، وإنْ سألَنَي لأعطِينَّهُ، ولئنْ استعاذَ بي لأعيذنَّهُ. ومَا ترددَّتُ عنْ شيءٍ أنَا فاعلُه ترددّي عنْ نَفسِ المؤْمنِ يكرهُ الموتَ وأنا أكرَهُ مساءَتهُ».

والمراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته، فمن تعبد الله مخلصاً ولكن على غير علم فليس بولي لله، ومن جمع بين العلم

والعمل وفقد الإخلاص فليس بولي لله، ومن تعلم العلم لله ولكن لم يعمل بعلمه فليس بولي لله. ولذلك نرى كثيراً من أهل التصوف والذين ينقصهم العلم قد وقعوا في ولاية الشيطان، حيث أنهم يعتقدون بالحلول والإتحاد فرأوا الخالق في جميع مخلوقاته حتى قال قائلهم وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما الله إلا راهب في كنيسة، والمرجئة تركوا العمل وقالوا الإيمان في القلب وهو قول بلا عمل، فهم من أولياء الشيطان وليسوا من أولياء الرحمن.

فإن تقرب العبد إلى الله بالإيمان وأداء الفرائض ثمّ أتبعها بالنوافل التي يتوصل بها إلى درجة الإحسان، خصه الله تعالى في الدنيا من عرفانه وفي الآخرة من رضوانه وفيما بين ذلك من وجود لطفه وامتنانه. ويصير العبد لا يسمع إلا ذكر الله ولا يلتذ إلا بتلاوة كتاب الله وأحاديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولا يأنس إلا بمناجاة الله، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوت الله، ولا يمد يده إلا فيما فيه رضى الله ورجله كذلك... وهذا هو معنى الحديث أي أن الله يكون في عون وليه في جميع حركاته وسكناته، لا كما ذهبت اليه الاتحادية بأن الحق هو عين العبد، وأن الله يظهر في صورة الوجود الكلي أو بعضه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح[1] «وحمله بعض أهل الزيغ على ما يدَّعونه من أن العبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى يصفى من الكدورات أنه يصير في معنى الحق، تعالى الله عن ذلك، وأنه يفنى عن نفسه جملة حتى يشهد أن الله هو الذاكر لنفسه الموحد لنفسه المحب لنفسه وان

(١) فتح الباري (١١/٣٤٤).

هذه الأسباب والرسوم تصير عدماً صرفاً في شهوده وان لم تعدم في الخارج، وعلى الأوجه كلها فلا متمسك فيه للاتحادية ولا القائلين بالوحدة المطلقة لقوله في بقية الحديث «ولئن سألني، ولئن استعاذني» فانه كالصريح في الرد عليهم».أ. هـ.

ثم قال: «وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن» قال الخطابي: «التردد في حق الله غير جائز، والبداء عليه في الأمور غير سائغ. ولكن له تأويلات: أحدهما ان العبد قد يشرف على الهلاك في أيام عمره من داء يصيبه وفاقة تنزل به فيدعو الله فيشفيه منها ويدفع عنه مكروهها، فيكون ذلك من فعله كتردد من يريد امراً فيم يبدو له فيه فيتركه ويعرض عنه ولا بد له من لقائه إن بلغ الكتاب أجله، لأن الله قد كتب الفناء على خلقه واستأثر بالبقاء لنفسه.

والثاني: أن يكون معناه ما رددت رسلي في شيء أنا فاعله كترديدي إياهم في نفس المؤمن، كما روي في قصة موسى وما كان من لطمه عين ملك الموت وتردده اليه مرة بعد أخرى، وحقيقة المعنى على الوجهين عطف الله على العبد ولطفه به وشفقته عليه».

«يكره الموت وأنا أكره مساءته»، والكراهة هنا لما يلقى المؤمن من الموت وصعوبته وكربه وسكراته، والله تعالى يكره أذى المؤمن.

فوليٌّ الله ذو قدرٍ عظيم عند مولاه، لكونه خرج عن تدبيره إلى تدبير ربه، وعن انتصاره لنفسه إلى انتصار الله له، وعن حوله وقوته بصدق توكله.

فمن آذى ولياً لله أو اعتدى عليه، فليأذن بحرب من الله عاجلاً أم آجلاً، وذلك بمصيبةٍ تنزل به في نفسه أو ماله أو ولده، ولربما في دينه وهي أعظم المصائب فإذا عرفنا ما لولي الله من مكانةٍ عالية عند مولاه، فما هي أشكال الكرامات التي يمكن أن يتحصل عليها ويكرمه الله بها؟ بالتحديد لا يمكن حصرها في أنماطٍ معينة لأن الكرامة عادة ما تكون من الخوارق أي فوق طاقات البشر الفكرية، ولكن يمكن ذكر بعض أشكال الكرامات التي حصلت لجماعة من الأولياء.

١- التأييد بالملائكة:

أخرج الإمام أحمد عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء رجل من الأنصار بالعباس قد أسره، فقال العباس: يارسول الله ليس هذا أسرني، أسرني رجل من القوم أنزع، من هيئته كذا وكذا فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «قد آزَرَكَ اللَّهُ بِمَلَكٍ كَرِيمٍ»[1]. أنزع يعني في رأسه صلع.

وأخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رجل من المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم[2]، فنظر إلى المشرك أمامه قد خرَّ مستلقياً فنظر اليه فاذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضرّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقال: «صَدَقْتَ ذَلكَ مِنْ مَدَدِ السَّماءِ الثَّالثةِ». فقتلوا يومئذٍ سبعين وأسروا سبعين.

---

(١) ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٨٨) وقال رجاله رجال الصحيح.

(٢) إسم فرس جبريل عليه السلام.

وهكذا ينصر الله عباده المؤمنين بعباده المكرمين كرامة يتكرم بها جل وعلا على كل فئة مؤمنة مستضعفة في الأرض حيث ما وجدت وفي أي زمان كانت، وما على المستضعفين إلا الصبر على الشدائد والثبات على العقيدة والتضحية من أجلها فإما نصر وإما شهادة...

٢- رؤية الملائكة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: عاد رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم رجلاً من الأنصار فلما دنا من منزله سمعه يتكلم في الداخل، فلما استأذن عليه، دخل عليه فلم ير أحداً، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «سَمِعْتُكَ تُكَلِّمُ غَيْرَكَ» قال: يا رسول الله لقد دخلت الداخل اغتماماً بكلام الناس مما بي من الحمّى، فدخل عليّ داخلٌ، ما رأيتُ رجلاً قط بعدك أكرمَ مجلساً ولا أحسنَ حديثاً منه قال: «ذَاكَ جبْرِيلُ، وَإِنَّ مِنْكُمْ لرجالاً لوْ أنَّ أحدَهُمْ يُقسِمُ على اللَّهِ لأبرَّهُ»(١).

وعنه أيضاً قال: كنت مع أبي عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعنده رجل يناجيه فكان كالمعرض عن أبي، فخرجنا من عنده، فقال أبي: أيْ بُنَيَّ، ألم تر إلى ابن عمك كالمعرض عني؟ فقلت: يا أبت، إنّه كان عنده رجل يناجيه، قال: فرحنا إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال أبي يا رسول الله، قلت لعبد الله كذا وكذا، فأخبرني أنّه كان عندك رجل يناجيك، فهل كان عندك أحد؟ فقال رسول الله صلى اللّه عليه وسلّم: «وَهَلْ رأيتَهُ ياَ عبدَاللَّهِ؟»

(١) قال الحافظ الهيثمي في المجمع (١٠/٤٤) رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط وأسانيدهم حسنة. قلت: وحسنه البوصيري في الزوائد.

قلتُ: نعمْ، قالَ: «فإنَّ ذلكَ جبريلُ عليهِ السَّلامُ هوَ الذي شغلني عَنْكَ»[1].

لقد كان الأنصاري رضي الله عنه مريضاً وبه حمّى، فتكلم الناس في مرضه فاغتمّ لكلامهم فبقي في بيته مهموماً من قلة الزائرين ممن أحبهم في صحته ونسوه في مرضه، وهذه أحوال المحبين من البشر إلا من رحم الله، يتلاقون في الرخاء ويتناسون في الشدة بل إن بعضهم ليختلق أعذاراً هي أقرب إلى الكذب منها إلى الصواب وذلك لتكون له ذريعة عند المريض تعفيه من الزيارة فأرسل الله تعالى جبريل عليه السلام ليؤنس المريض في عزلته ويخفف عنه من آلام مصيبته ولم يكن الصحابي الجليل ليعرف أن زائره هو جبريل عليه السلام لولا أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أخبره بذلك وهذه كرامة.....

٣- إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم:

عن معاوية بن حيدة القشيري قال: «أتيت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، فلما دفعت إليه، قال: «أمَا إنِّي قدْ سألتُ اللَّه أنْ يُعينَني بالسَّنَةِ تَحْفيكُمْ، وبالرُّعْبِ يجعلهُ في قلوبِكُمْ» فقال بيديه جميعاً: أما أني قد حلفت هكذا، وهكذا أن لاأؤمن بك، ولا أتبعك، فما زالت السنة تحفيني، وما زال الرعب يجعل في قلبي حتى قمت بين يديك[2]». السَّنَة: القحط والجدب. ومعنى تحفيكم أي تستأصلكم.

---

(١) قال الحافظ الهيثمي في المجمع (٢٧٩/٩) رواه أحمد والطبراني بأسانيد ورجالها رجال الصحيح.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (٦٩/٦) إسناده حسن.

٤- هزيمة الأعداء برمية الأولياء

عن حكيم بن حزام، قال: سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض، فكأنه صوت حصاة في طست، ورمى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم بتلك الحصاة، فانهزمنا.

وفي رواية قال: «لما كان يوم بدر أمر رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم فأخذ كفاً من الحصى، فاستقبلنا به، فرمى بها وقال: شاهت الوجوه فانهزمنا، فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[1].

٥- بلوغ الصوت إلى الآفاق

عن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال وجَّه عمر جيشاً ورأس عليهم رجلاً يدعى سارية رضي اللّه عنه فبينما عمر رضي الله عنه يخطب جعل ينادي: يا سارية الجبل -ثلاثاً- ثم قدم رسول الجيش، فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، هزمنا فبينما كنّا كذلك، إذ سمعنا صوتاً ينادي: يا سارية الجبل -ثلاثاً- فأسندنا ظهرنا إلى الجبل، فهزمهم الله تعالى، قال: قيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك».[2].

وهكذا يرى عمر الفاروق رضي الله عنه ساحة المعركة وهو على المنبر في المدينة ويرى أن الأعداء قد أحاطوا بالمسلمين وأوشكوا أن يهزموهم

---

(١) ذكرهما الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٧/٦) وقال رواهما الطبراني في الكبير والأوسط واسنادهما حسن.

(٢) أخرجه البيهقي واللالكائي في شرح السنة وأبو نعيم في الدلائل وابن كثير في البداية (١٣١/٧). وقال: إسناده حسن.

فيصيح بأعلى صوته يا سارية الجبل أي انتبهوا لا يأتينكم العدو من ورائه، وبالفعل يبلِّغ الله صوته إلى سارية رضي الله عنه فيأخذوا حذرهم من الجبل ويكرمهم الله بالنصر كما أكرم عمر رضي الله عنه بالرؤية وإبلاغ صوته من مسيرة شهر.

٦- تسخير الشياطين لهم:

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وَكَّلَني رَسولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام فأخذته، وقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: إني محتاج، وعليَّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخلَّيتُ عنه، فأصبحت فقال النبيُّ صلّى اللّه عليه وسلّم: «يا أبا هُرَيْرَةَ ما فَعَلَ أسيرُكَ البارِحَةَ؟» قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحِمتُهُ، فخلَّيتُ سبيله، قال: «أما إنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعودُ» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلّم «إنه سيعود» فرصدتُهُ، فجاء يحثو من الطعام، فأخذتُهُ، فقلت: لأرفعنَّكَ إلى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم، قال: دَعْني فإنّي محتاج وعليَّ عيال، لا أعود فرحمتُهُ فخلَّيتُ سبيله، فأصبحتُ، فقال لي رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم: «يا أبا هُرَيْرَةَ ما فَعَلَ أسيرُكَ؟» قلت يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمتُهُ فخلَّيتُ سبيله، فقال: «أما إنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعودُ» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم «إنه سيعود» فرصدتُهُ، فجاء يحثو من الطعام فأخذتُهُ، فقلت لأرفعنَّكَ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وهذا أخر ثلاث مرات إنك تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دَعْني أعَلِّمُكَ كلماتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِها، قلت: ما هنَّ؟ قال: إذا أويتَ إلى فراشِكَ

فاقرأ آيةَ الكرسي ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية، فإنَّكَ لن يزالَ عليكَ مِنَ اللَّهِ حافظٌ، ولا يقربَكَ شيطانٌ حَتَّى تُصبِحَ، فخلَّيتُ سبيلَهُ، فأصبَحتُ فقال لي رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم: «ما فَعَلَ أسيرُك البارِحَةَ؟» قلت: زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله. قال: ما هي؟ قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أوَّلِها حتَّى تختم-﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾- وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان، حتى تصبح- وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم: «أما إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذوبٌ تَعْلَمُ مَنْ تُخاطِبُ مُنْذُ ثَلاثِ لَيالٍ؟» قلتُ: لا. قال: «ذاكَ شيطانٌ».

٧- سماع الجمادات:

أخرج البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنّا نعدُّ الآيات بركة وأنتم تعّدونها تخويفاً، كنّا مع رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم في سفر، فقلَّ الماء، فقال: «اطلبوا فضلةً منْ ماءٍ» فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «حيَّ على الطَّهور المبارك والبركة مِنَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ» قال: فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم، ولقد كنَّا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤْكَلُ».

وروى أيضاً عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة -أو نخلة- ، فقالت امرأة من الأنصار -أو رجل-: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبراً، قال: «إن شئتم» فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر فصاحت النخلة صياح

الصبي، ثم نزل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فضمه إليه، يَئنُّ أنينَ الصبيِّ الذي يسكَّن، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها».

وأخرج الطبراني بسنده عن أبي أسيد الساعدي رضي اللّه عنه قال: قال رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم للعباس بن عبد المطلب -رضي اللّه عنه-: «لا تبرح منزلك وبنوك غداً حتى آتيكم فإن لي فيكم حاجة» فانتظروه حتى بعدما أضحى فدخل عليهم فقال: «السلام عليكم» قالوا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته قال: «كيف أصبحتم؟» قالوا: نحمد الله، قال: تقاربوا بزخف بعضكم إلى بعض» حتى إذ أمكنوه اشتمل عليهم بملاءته ثم قال: «يا رب هذا عمي وصِنْو أبي، وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه» فأمَّنت أسكفةُ الباب وحوائط البيت فقال آمين، آمين، آمين»[1]. والملاءة هي الإزار، والأسكف هي عتبة الباب.

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[2]. فالمخلوقات كلها حيوانها وجمادها مستسلمة خاضعة لأوامر خالقها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأرض ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[3]. وكلها تسبح بحمد ربها بالكيفية التي تتناسب مع خلقتها، إلا أن الإنسان لا يفقه شيئاً من ذلك بسبب حدود طاقته القاصرة فمن علم شيئاً مما هو فوق طاقته فقد أعطي كرامةً من الله...

(١) وذكره الحافظ الهيثمي في المجمع (٩/٢٧٣) وقال إسناده حسن.

(٢) سورة الإسراء، الآية (٤٤).

(٣) سورة فصلت، الآية (١١).

٨- حفظ الأجساد بعد الممات:

اخرج الشيخان عن ابي هريرة رضي الله عنه، قال: «بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سرية، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح رضي الله عنه -وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب- فانطلقوا، حتى إذا كان بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ فاقتصوا آثارهم، حتى أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزوّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم و أصحابه لجأوا إلى فَدْفَدٍ[١]، وجاء القوم وأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك. فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيدٌ ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيِّهم[٢] فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما، هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فحرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً، حتى إذا اجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدّ[٣] بها، فأعارته، قالت: فغفلت

(١) هي الرابية المشرفة أو الموضع المرتفع.

(٢) جمع قوس.

(٣) ليحلق بها عانته

عن صبي لي، فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعةً عرف ذاك مني، وفي يده الموسى، فقال: اتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله.

وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ ثمرةٌ، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال دعوني أصلي ركعتين. ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أنّ ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول مَنْ سَنَّ الركعتين عند القتل هو: ثم قال اللهم احصهم عددا. ثم قال:

ما أن أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي شق كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلو[1] ممزّع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدُّبر[2] فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء».

هؤلاء هم أولياء الله، وهؤلاء هم أحباب الله، هذه صفاتهم وتلك مآثرهم حفظوا الله في حياتهم فحفظهم بعد مماتهم من أن تمتد إليهم أيدي أهل الكفر وأولياء الشيطان. إن الأقلام لتعجز عن مدحهم وإن المشاعر لتهتز عند ذكرهم، كيف لا يكون ذلك وهم ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه، من

(١) الشلو يطلق على العضو ولكن المراد به هنا الجسد كله.

(٢) ذكور النحل والزنابير.

أحبهم فقد أحب الله ومن أبغضهم فقد أبغض الله!.

إن خبيباً كان يأكل عنباً ولم يكن بمكة يؤمئذ ثمر وكان مقيداً بالحديد، فرزقه الله رزقاً من حيث لم يحتسب كرامة له، وآية لمن حوله من الكفار لعلهم يعتبرون بذلك. أما عاصم فقد استجاب الله له دعوته حيث جاء في بعض الروايات قوله «اللهم كما حميت دينك فاحمي لحمي»، واراد اعداء الله أن يشربوا الخمر في جمجمة رأسه فأرسل الله جنداً من جنده تحرس جسد عاصم بعد أن صعدت روحه الطاهرة إلى جوار ربها وأخذت مكانها في قناديل مخصصة لأرواح الشهداء، لقد دافعت الزنابير عن جسد عاصم رضي الله عنه حتى لا تمسّه يد كافر خبيث. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾[1].

إن الله الذي أكرم أولياءه في القرن الأول قادرٌ على إكرام أوليائه في هذا الزمان في فلسطين والفلبين وكشمير والحبشة، وفي البوسنة والهرسك وحيثما كانوا... وهو قادرٌ على تأمين ارزاقهم ومن يعولون طالما أنهم وقفوا في مواجهة أولياء الشيطان من هيئة الأمم المتحدة الذين يدعون إلى الفجور والإباحية ونشر الرذيلة ومحاربة الفضيلة وما تدعو إليه الشرائع السماوية إن دعوى الهيئة بإنها تحافظ على مصالح الشعوب والأمم وأنها تسعى لحمايتها من المجاعات، المتنبئة في بلدانهم هي دعوى باطلة، لأن أرزاق العباد تكفل بها الذي خلقهم من حين ولادتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون. مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُون. إِنَّ اللَّـه هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو

(١) سورة المدثر، الآية (٣١).

الـــقُوَّةِ المَتِين﴾[1]. وإن الحلول التي وضعوها لحل مشاكلهم لا تزيدها إلا تعقيداً، وذلك لأنهم يعلنون من خلالها الحرب على شريعة الله فكيف يرجون القطر من السماء؟!، وكيف لهم أن يتحملوا ما هو فوق طاقاتهم البشرية؟. إن الحل الوحيد لمشاكل البشرية جميعها ينحصر في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الـقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ الـسَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

فكل ما نراه من انتشار المجاعات والأوبئة التي لم تكن في أسلافنا، إنما هو عقاب من الله بسبب البعد عن المنهج الرباني، ورفعه لا يكون إلا في الطاعة والإنقياد لمن خلق الكون والعباد....

٩- تسخير السباع في خدمتهم:

عن محمد بن المنكدر «أن سفينة رضي الله عنه مولى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها، فركبت لوحاً من ألواحها، فطرحني اللوح في أجمة فيها الأسد، فأقبل إليّ يريدني فقلت: يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فطأطأ رأسه، وأقبل إليَّ، فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق، وَهَمْهَمَ، فظننت أنه يُوَدِّعُنِي، فكان ذلك آخر عهدي به؟»[3].

(١) سورة الذاريات، الآيات (٥٦-٥٨).

(٢) سورة الأعراف، الآية (٩٦).

(٣) رواه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. ورواه أيضاً البخاري في التاريخ وأبو نعيم في الحلية والطبراني والبزار وقال الهيثمي في المجمع (٣٦٦/٩) ورجالهما وثقوا.

لقد كان الأسد مفترشاً بين القصب ينتظر فريسة تسد جوعه، فإذا هي أمامه فغار عليها يريد إلتهامها، فخاطبته بلسانٍ عربيٍ مبين يا أبا الحارث وهي كنية الأسد فوقف في محله وكأنه فهم لغة المنادي!، وأنصت له، فقال له الصحابي الجليل «أنا مولى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم». فطأطأ رأسه احتراماً لهذا الصحابي وتبجيلاً لصاحب المقام المحمود والحوض المورود سيد المرسلين. وقائد الغر المحجلين، محمد صلّى اللّه عليه وسلّم. إن ملوك الغابات تطأطيء رؤوسها مذللة نفسها في خدمة أتباع محمد صلّى الله عليه وسلّم، وبعض ملوك البشر يطأون على رأس كل من يعلن أنه من أتباع شريعة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم! فأيهم أفضل منزلة؟!!.

إن فهم السبع لخطاب الصحابي رضي الله عنه وتذليل نفسه في خدمته هو خارقٌ للعادة ويعد كرامةً....

١٠- إضاءة العراجين لهم:

أخرج أحمد في حديث طويل في قصة ساعة الجمعة عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال ثم هاجت السماء من تلك الليلة، فلما خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لصلاة العشاء الآخرة، بَرقتْ برَقةً، فرأى قتادة بن النعمان رضي الله عنه فقال: «ما السُّرى[1] يا قتادة»؟ قال: علمت يا رسول الله أن شاهد الصلاة قليل؛ فأحببت أن أشهدها، قال: «فَإذا صَلَّيْتَ فَاثْبُتْ حَتَّى أَمُرَّ بِكَ» فلما انصرف أعطاه العرجون[2] وقال: «خُذْ هَذَا فَسَيُضِيءُ لَكَ أَمَامَكَ

(١) السرى: هو السير ليلاً.

(٢) العرجون: هو عذق النخل إذا أزيلت الشماريخ.

عَشْراً، وخَلْفَكَ عَشْراً، فَإذَا دَخَلْتَ البَيْتَ وتَرْاءَيْتَ سَوَاداً في زَاوِيَةِ البيتِ فَاضْرِبْهُ قَبْلَ أنْ تَتَكَلَّمَ، فَإنَّهُ شَيْطَانٌ».

وفي رواية الطبراني قال: «فأعطاني العرجون، فقال: إن الشيطان خلفك في أهلك، فاذهب بهذا العرجون، فامسك به حتى تأتي بيتك فخذه من زاوية البيت، فاضربه بالعرجون فخرجت من المسجد، فأضاء العرجون مثل الشمعة نوراً، فاستضأت به، فَأَتَيْتُ أهلي، فوجدتهم قد رقدوا، فنظرت في الزاوية، فإذا فيها قنفذ، فلم أزل أضربه بالعرجون حتى خرج»[1].

إن المواظبة على الصلوات مع الجماعة حيث ينادى بهن، واجب على الرجال دون النساء والأطفال من هذه الأمة، وإن كثرة الخطى إلى المساجد من الرباط في سبيل الله، فلماذا سأل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قتادة عن السُّرَى؟ لقد كان من هدي النبوة أن يرخص للناس بالصلاة في البيوت في الظروف القاسية كالمطر الشديد والوحل والطين وغير ذلك حتى أنهم كانوا يقولون في الأذان بعد الحيعلتين «صلوا في رحالكم»، ولما أخذ قتادة رضي الله عنه بالعزيمة وترك الرخصة مبتغياً الأجر من الله جاء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ليقرر له فضل العمل الذي قام به. وصلاة العشاء وصلاة الفجر لهما مزية عن بقية الصلوات حيث جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ صَلّى العِشَاءَ فِي جَماعَةٍ كانَ كَقِيامِ نِصْفِ لَيلةٍ ومنْ صلّى العِشاءَ والفَجرَ في جَماعةٍ كان كقيامِ ليلةٍ»[2].

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٧٠/٢) رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح. أما رواية الطبراني فرجال السند موثوقون كما قال في المجمع (٤٣/٢). والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب.

(٢) رواه أبو داود والنسائي. انظر صحيح الجامع (٦٢١٨).

وقيام الليل من النوافل التي يزداد العبد بها تَقَرُّباً من الله تعالى ويحصل على محبته والتي هي سبب في نيل كرامته، ومن هنا أضاء العرجون له طريق مدرجته. ثم أن هناك كرامة أخرى أعطيها قتادة رضي الله عنه في تلك الليلة، وهي إخبار النبي صلّى اللّه عليه وسلّم له عن وجود شيطان في بيته وأمره أن يضربه بالعرجون، فلما ذهب إلي البيت وجد أهله نائمين فنظر في زاوية البيت فرأى قنفذاً فعرف أنه شيطان تمثل في صورة قنفذ فضربه حتى أخرجه.

١١- البركة في طعامهم:

أخرج البخاري في دلائل النبوة عن جابر رضي الله عنه، «أن أباه توفي وعليه دين، فأتيت النبي صلّى الله عليه وسلّم فقلت: إن أبي ترك عليه ديناً وليس عندي إلا ما يُخْرِجُ نخلُه، ولا يبلغ ما يخرج سنين ما عليه، فانطلق معي لكيلا يفحش عليَّ الغرماء فمشى حول بَيْدَرٍ من بيادر التمر، فدعاه ثم آخر، ثم جلس عليه فقال «انزعوه» فأوفاهم الذي لهم، وبقي مثل ما أعطاهم». وفي رواية لأبي نعيم في الدلائل: «وجلس عليه ثم قال: ادع أصحابك، فمازال يكيل حتى أدى الله عز وجل أمانة والدي، وأنا والله راض أن يؤدي الله عز وجل أمانة والدي، ولا أرجع إلى أخواتي بتمرة، فسلَّمَ اللَّهُ عز وجل البيادر كلها، حتى إني لأنظر إلى البيدر الذي عليه رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم كأنه لم ينقص تمرة واحدة».

١٢- الرزق من حيث لا يحتسبون:

أخرج مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما في حديث طويل قال فيه: وشكى الناس إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الجوع، فقال:

«عسى اللّه أن يطعمكم» فـأتينا سيف البحر[1]، فزخـر[2] البحر زخـرة، فألقى دابة، فأودينا على شقها النار، فـأطبخنا وأشـوينا، وأكلنا وشـبعنا، قـال جابر: فدخلت أنا وفلان وفلان حتى عـد خمسة في حجاج[3] عينها، مـا يرانا أحد حتى خرجنا، فـأخذنا ضلعاً، من أضلاعه، ففرشـناه ثم دعونا بأعظم رجل في الركب، وأعظم جمل فـي الركب وأعظم كفل[4] في الركب، فدخل تحته ما يطأطئ رأسه.

إن أكـثـر ما يـشغـل تفكيـر النـاس اليـوم، الأفراد والجـمـاعـات والدول والحكومات وعلى جميع المستويات هو موضوع الغذاء حتى أن بعضهم وقع في شباك الشيطان ودخل في حزبه على أمل أن يحسّن مستوى معيشته فخسر دنياه وآخرته. إن الحياة الضنك التي نعيشها، والضعف والهوان الذي دب في الأمّة ما هو إلاّ نتاج العمل السيء والإعراض عن دين الله جملة وتفصيلاً. ولو أن الأمّة في أفرادها وجماعاتها توكلت على الله حق التوكل وأقبلت على دين الله أفـواجـاً ودخلت في حـزب الله، فـوالت من والاه اللـه وعادت من عـاداه الله، وتمسكت بشرع الله الذي لا يأتيه الـباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلو أنها فعلت ذلك لرزقها الله كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً.

يقـول تعالـى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي

(١) سيف البحر: ساحل البحر.
(٢) زخر البحر: مد وكثر ماؤه وارتفعت أمواجه.
(٣) حجاج: عظم تجويف العين.
(٤) الكفل: كساء يوضع حول سنام البعير.

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ. نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ. وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

اللهم اجعلنا من أوليائك وقدِّرنا على شكر نعمائك والصبر على ابتلائك واحشرنا مع أفضل أنبيائك وخيرة أصفيائك. آمين

(١) سورة فصلت، الآيات (٣٠-٣٣)

(٦)
الإبتـــــلاء

الطالب يمتحن في مجال دراسته ليعرف مستوى فهمه وإدراكه والعامل يمتحن في مجال عمله ليعرف مستوى إتقانه للعمل وإخلاصه، ثم يجازى كل واحد بحسب كفاءته، فمن زرع خيراً حصد مثله، ومن قصّر في الأداء شُدِّد عليه في العطاء.

وفي هذه الحلقة نقطف ثمرة طيبة من ثمار كلام النبوة، إنها السادسة في ترتيبها، حيث يقول المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم: «...فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بُنَيّ أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلَّ عليّ؛ وكان الغلام يبريء الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء...»

لقد ارتقى الغلام في سلّم الإيمان، وبدأ يستشرف مراتب الإحسان، فنال بذلك محبة الرحمن وحلّ عليه الرضا والرضوان وأكرمه الله تعالى وخصّه في معالجة الأبدان فبات ولياً لله فلا بد لإيمانه من امتحان..

يقول الله تعالى: ﴿المٓ. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ. أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا

يَحْكُمُونَ﴾[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (فالناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنّا وإما أن لا يقول آمنّا، بل يستمر على عمل السيئات. فمن قال آمنّا امتحنه الرب عز وجل، وابتلاه، و ألبسه الإبتلاء والاختبار ليبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يسبق الرب لتجربته، فإن أحداً لن يعجز الله تعالى، هذه سنته تعالى يرسل الرسل إلى الخلق، فيكذبهم الناس ويؤذونهم، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾[2] وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾[4]، ومن آمن بالرسل وأطاعهم عادوْه وآذوه فابتلي بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم عوقب فحصل له ما يؤلمه أعظم وأدوم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس سواء آمنت أم كفرت، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً ثم يصبر في الألم.

سأل رجلٌ الشافعي فقال: يا أبا عبد الله، أيما أفضل للرجل أن يمكَّن أو يبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكّن حتى يبتلى فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين، فلما صبروا مكّنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة.

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات (١-٤).
(٢) سورة الأنعام، الآية (١١٢).
(٣) سورة الذاريات، الآية (٥٢).
(٤) سورة فصلت، الآية (٤٣).

وهذا أصل عظيم فينبغي للعاقل أن يعرفه وهذا يحصل لكل أحد فإن الإنسان مدني بالطبع لا بد له من أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات يطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة منهم، وتارة من غيرهم، ومن اختبر أحواله وأحوال الناس وجد من هذا شيئاً كثيراً، كقوم يريدون الفواحش والظلم، ولهم أقوال باطلة في الدين أو شرك، فهم مرتكبون بعض ما ذكره الله من المحرمات في قوله تعالى :﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ والبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانَاً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]، وهم في مكان مشترك كدار جامعة، أو خان، أو قيسيرية، أو مدرسة، أو رباط، أو قرية، أو درب، أو مدينة فيها غيرهم، وهم لا يتمكنون مما يريدون إلا بموافقة أولئك، أو بسكوتهم عن الإنكار عليهم، فيطلبون من أولئك الموافقة أو السكوت فإنْ وافقوهم أو سكتوا سلموا من شرهم في الإبتلاء، ثم قد يتسلطون هم أنفسهم على أولئك يهينونهم ويعاقبونهم أضعاف ما كان أولئك يخافونه ابتداء، كمن يطلب منه شهادة الزور أو الكلام في الباطل إمّا في الخبر وإما في الأمر أو المعاونة على الفاحشة والظلم فإن لم يجبهم آذوه وعادوه، وإن أجابهم فهم أنفسهم يتسلطون عليه، فيهينونه أضعاف ما كان يخافه، وإلا عُذِّبَ بغيرهم.

فالواجب ما في حديث عائشة الذي بعثت به إلى معاوية، ويروى موقوفاً ومرفوعاً: «مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسُخْطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مَؤُونَةَ النَّاسِ»، وفي

(١) سورة الأعراف، الآية (٣٣).

لفظ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسُخْطِ اللَّهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً»، وفي لفظ «عَادَ حَامِدٌ مِنَ النَّاسِ ذَامّاً»[1].

وهذا يجري فيمن يعين الملوك والرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدع المنتسبين إلى العلم والدين على بدعهم. فمن هداه الله وأرشده وامتنع من فعل المحرم وصبر على أذاهم وعداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة كما جرى للرسل وأتباعهم مع من آذاهم وعاداهم، مثل المهاجرين في هذه الأمة ومن ابتلي من علمائها وعبّادها وتجارها وولاتها.

وقد يجوز في بعض الأمور إظهار الموافقة وإبطان المخالفة كالمكره على الكفر، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع إذ المقصود هنا: أنه لا بد من الإبتلاء بما يؤذي الناس، فلا خلاص لأحد ممايؤذيه البتة، ولهذا ذكر الله تعالى في غير موضع أنه لا بد أن يبتلى الناس، والإبتلاء يكون بالسراء والضراء، ولا بد أن يبتلى الإنسان بما يسره وما يسوءه، فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً) أ.هـ.

والنفس لا تزكو وتصلح حتى تمحص بالبلاء، كالذهب الذي لا يخلص جيده من رديئه حتى يوضع في كير الإمتحان حيث أن النفس جاهلةٌ ظالمة وهي منشأ كل شر يحصل للعبد. ومع ذلك فإنه لا يجوز للإنسان أن

---

(١) رواه الترمذي بلفظ «مَن التمسَ رضى اللَّهِ بِسُخْطِ النَّاسِ كفاهُ مؤونةَ النَّاسِ وَمَنِ الْتمسَ رِضى النَّاس بِسُخْطِ اللَّهِ وكّلهُ اللَّهُ إلى النَّاسِ» وفي لفظ آخر «مَنْ أَرْضى النَّاسَ بِسُخْطِ اللَّهِ وكّلهُ اللَّهُ إلى النَّاسِ وَمَنْ أَسْخَطَ النَّاسِ بِرِضى اللَّه كفاهُ اللَّهُ مؤونةَ النَّاسِ» والحديثان صحيحان.

يعرّض نفسه لما لا يطيق من البلاء، لقول الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم: «لا ينبغي لمؤمنٍ أنْ يذلَّ نفسهُ يتعرضُ للبلاءِ لما لا يطيقُ»(١).

ولهذا قال الراهب للغلام «فإن ابتليتَ فلا تدلَّ عليّ» وهذا دأب أهل الباطل يلاحقون أهل الحق في بيوتهم وفي أماكن عبادتهم حتى يوافقوهم على باطلهم أو يسلطون عليهم زبانية العذاب فإما استسلام وإما قتل .

أشكال الابتلاءات

يقول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ والأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(٢).

إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الإستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات، والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب مجندة القوى، يقظة للمداخل والمخارج ولا يكون لها ذلك إلا بالصبر على الطاعات والصبر عن المعاصي والصبر على كيد الحاقدين والصبر على قلة أهل الحق وكثرة أهل الباطل والصبر على إخوة الدين الذين يقفون حجر عثرة في طريق نشر الخير وذلك بسبب الاختلاف في مفهوم

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه واسناده صحيح.

(٢) سورة البقرة، الآيات (١٥٥-١٥٧).

طبيعة هذا الدين... يصبر ويتيقن أن اللّـه مع الصابرين، يؤيدهم ويثبتهم ويقويهم ويؤنسهم ولا يتركهم لقوتهم الضعيفة وطاقاتهم المحدودة..

ولا بد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان العزم على مواصلة معركة الحق بالمخاوف و الشدائد وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات وهذه المشاق تكاليف للعقيدة والإيمان، فمن لم يدفع الثمن غالياً سهل عليه بيع عقيدته بأبخس الأثمان...

والإنسان يبتلى حسب إيمانه كما جاء في الحديث الصحيح عن الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم «أشدُّ النّاسِ بلاءً الأنبياءُ، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الرَّجلُ على حَسَبِ دينِه، فإن كانَ في دينه صلباً، اشتدَّ بلاؤهُ وإن كانَ في دينهِ رِقَّةٌ ابتُليَ على قَدرِ دينِه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتَّى يتركَهُ يمشي على الأرضِ وما عليهِ خطيئةٌ»(١). فنبي الله ابراهيم عليه السلام كان أمةً في الصبر ابتلاه الله في الشدائد أمام النمروذ فصبر على طريق الدعوة إلى عبادة الله وحده ولم يتأثر قلبه بما عند النمروذ من بهرجة الملك وكثرة الراكعين والساجدين بين يديه من عواذل البشر ولما رأى الملك الطاغية ثبات ابراهيم عليه السلام على عقيدته، متحدياً لأوامره السامية!، أمر بالنيران أن تضرم وأمر الرعية أن تشهد مصير هذا المخالف العنيد، أمرهم أن ينظروا بأعينهم نهاية هذا الأصولي المتشدد المتطرف الذي يدعى ابراهيم!.

نعم إخوة الإيمان إن كل من يدعو إلى عبادة الله وحده وترك عبادة البشر والحجر والشجر والشمس والقمر فهو أصولي متشدد متطرف وكل من

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم في المستدرك.

يدعو إلى تحكيم شرع الله وترك حكم الجاهلية فهو أصولي متشدد متطرف وكل من يدعو إلى القيم والأخلاق والفضيلة وينبذ الشر والفساد والرذيلة فهو أصولي متشدد متطرف. ويوضع ابراهيم عليه السلام على المنجنيق ويقذف به في وسط النيران المستعرة إلا أنه لم يصب بأذى ولم تحرق شعرةٌ واحدة من جسده، لأن النار أطاعت ربها وخالقها وعصت فاعلها وهو النمروذ، ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾[1].

وابتلاه الله في أهله عندما أمره أن يترك زوجته وطفله الرضيع في صحراء قاحلة لا عشب فيها ولا ماء وهي من مقومات حياة الإنسان، فصبر على ذلك وأطاع أمر الله مع ما يختلج في داخله من عواطف انسانية جياشة وزوجته تحمل ابنها وهو يصيح من غربة الديار وتقول يا ابراهيم إلى من تتركنا؟ وهو لا يجيب ثم قالت له آلله أمرك بهذا؟ فهز رأسه بالإيجاب قالت إذن لا يضيعنا! ونتيجةً لصبر ابراهيم عليه السلام وصبر زوجته هاجر عليها السلام أخرج الله في تلك الصحراء القفار ماءً عذباً فراتاً قال عنه المصطفى صلى الله عليه وسلّم: «زمزم طعام طعم وشفاء سقم»[2]. وفي رواية «ماء زمزم لما شرب له»[3] وابتلى الله إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده اسماعيل فصبر على ذلك، ولما همّ بذبحه ووضع السكين على عنقه وحنان الأبوّة في صراع داخلي مع الأمر الإلهي، ومضت يده طائعةً لأمر ربها فنزل الوحي في

(١) سورة الأنبياء، الآيتان (٦٩-٧٠).

(٢) رواه الإمام الشافعي والبزار وإسناده صحيح.

(٣) رواه الإمام الشافعي وأحمد والبيهقي وهو حديث صحيح.

ساعة الصفر ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[1].

ونتيجة لهذه التضحيات العظيمة التي قدمها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أكرمهما الله ببناء البيت العتيق وجعل الحج إليه رُكْناً من أركان الإسلام وجعل أعمالهما وهاجر من شعائر الله التي لا يتم النُّسُك إلا بها.

وهذا نبي الله لوط عليه السلام لما دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش، لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نهوا. بل استمروا على حالهم، ولم يرعووا عن غيهم وضلالهم، وهموا باخراج رسولهم من بين ظهرانيهم. وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم -إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[2] فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضي الإخراج! وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج. فطهره الله وأهله إلا امرأته، وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم في محلَّتهم خالدين، لكن بعد ما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج، وحر يتوهج، وماؤها ملح أجاج. وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن ارتكاب الطامة العظمى، والفاحشة الكبرى، التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين أهل الدنيا. ولهذا صاروا مثلةً فيها وعبرة لمن

(١) سورة الصافات، الآيات (١٠٥-١٠٩).

(٢) سورة النمل، آية (٥٦).

عليـهـا[1]. وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم -المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه. حتى قيل أنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحون من مجالسهم، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون، ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل.

وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا، ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر، ولا ندموا على ما سلف من الماضي، ولا راموا في المستقبل تحويلاً، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2] فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم، وحلول البأس العظيم.

فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين. فغار الله لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام، وملائكته العظام، فأمر لوطاً أن يصعد إلى الجبل وقيل إنه ذهب إلى قرية (صوعر) التي يقول الناس: غورزغر فلما اشرقت الشمس نزل بهم العذاب. وقالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه

---

(١) وعجلة الزمان تدور، وتجتمع هيئة الأمم المتحدة في عاصمة بلدٍ مسلم لتقرر الإباحية والشذوذ الجنسي تحت شعاراتٍ انسانية زائفة، ويقف دعاتها من أبناء جلدتنا ليجددوا العهد والولاء للشيطان وحزبه من أمثال قوم لوط، ضاربين بشرائع الله والأخلاق والقيم عرض الحائط ولكن الله أفشل خططهم ورد كيدهم في نحورهم وجعل بأسهم بينهم شديد.

(٢) سورة العنبكوت، الآية (٢٩).

من قرارهن -وكن سبع مدن- بمن فيهن من الأمم، فقالوا: انهم كانوا أربعمائة نسمة، وقيل أربعة آلاف نسمة، وما معهم من الحيوانات، وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات فرفع الجميع حتى بلغ عنان السماء، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها. قال مجاهد: فكان أول ما سقط منها شرفاتها. وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها، لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثله وعظ وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله، واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في انجائه إياهم من المهلكات، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ. وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[2].

أي تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة، وخشي الرحمن بالغيب، وخاف أن يشابه قوم لوط، ومن تشبّه بقومٍ فهو منهم، وإن لم يكن من كل وجه، فمن بعض الوجوه، كما قال بعضهم:

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم ... فما قوم لوط منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه، يمتثل ما أمره الله به عز وجل،

(١) سورة الشعراء، الآيتان (٨-٩).
(٢) سورة الذاريات. الآيات (٣٥-٣٧).

ويقبل مـا أرشده إليه رسول الله صـلّى اللّه عليه وسلّم من اتيان مـا خلق له من الزوجـات الحلال والجـواري من الـسراري ذوات الجـمال، وإيـاه ان يتـبع كل شيطان مـريد فـيحق عليـه الوعـيـد، ويدخل فـي قولـه تعـالى:﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(١).

أمّا نبي الله أيوب عليه السلام فقد ابتـلاه الله تعالى في جسده وفي ماله وأهله وولده فـصبر عـلى كل ذلك حتى أصبح يضرب بصـبره المثل قـال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾(٢). وقال تعـالى في سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ. ارْكُضْ بِرِجْلِكَ، هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُم رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ. وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٣).

قال علمـاء التفسـير والتاريـخ وغيرهم: كـان أيوب رجلاً كثـير المال من سائر صنوفـه وأنواعه، من الأنعام والعـبيد والمواشي، والأراضي المتسـعة بأرض الثنيـة من أرض حوران. وحكى ابـن عساكـر: إنها كلهـا كانت له. وكـان له أولاد وأهلون كثير.

---

(١) سورة هود، الآية (٨٣).

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان (٨٣-٨٤).

(٣) سورة ص الآيتان (٤١-٤٤).

فسلب منه ذلك جميعه، وابتلي في جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل بهما... وهو في ذلك كله صابر محتسب، ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه.

وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأخرج من بلده وألقي على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه اليها وشفقته عليها. فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه، وتعينه على قضاء حاجته. وتقوم بمصلحته وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر، لتطعمه وتقوم بأوده، رضي الله عنها وأرضاها، وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد، وما يختص به من المصيبة بالزواج، وضيق ذات اليد وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة و الخدمة والحرمة. فإنا لله وإنا إليه راجعون ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً حتى ان المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا. وقد اختلف أهل العلم في مدة بلواه على أقوال: فزعم وهب أنه ابتلي ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص. وقال أنس: ابتلي سبع سنين وأشهراً، وألقي على مزبلة لبني إسرائيل تختلف الدواب في جسده حتى فرج الله عنه وأعظم له الأجر، وأحسن الثناء عليه. وقال حميد: مكث في بلواه ثماني عشر سنة، وقال السدي: تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته، فلما طال عليها، قالت: يا أيوب... لودعوت ربك لفرج عنك، فقال قد عشت سبعين سنة صحيحاً، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟ فجزعت من هذا الكلام، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم

أيوب عليه السلام. ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها، لعلمهم أنها امرأة أيوب، خوفاً أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته، فلما لم تجد أحداً يستخدمها، عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف احدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير، فأتت به أيوب، فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره، فقالت: خدمت به أناساً. فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به، فانكره وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام؟ فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها محلوقاً قال في دعائه:

﴿رَبِّ أَنِّي مَسَنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1].

روى الإمام أحمد والبخاري رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم «بَينمَا أيوبُ يغتسل عرياناً خر عليه رِجْلُ جرادٍ منْ ذهبٍ، فجعلَ أيوبُ يحثي[2] في ثوبه. فناداه ربُّه عزَّ وجلَّ: يا أيوبَ... ألم أكنْ أغنيتُكَ عما ترى؟ قال: بلى يا ربُّ، ولكنْ لا غنى لي عنْ بركتك» ومعنى رِجْلُ الجرادِ أي قطيع من الجراد. وقوله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾[3] أي اضرب الأرض برجلك، فامتثل ما أمر به. فأنبع الله له عيناً باردة الماء، وأمره أن يغتسل فيها ويشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى، والسقم والمرض، الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة، وجمالاً تاماً ومالاً كثيراً حتى

(١) سورة الأنبياء، الآية (٨٣).

(٢) أي يغترف بيديه في توبه.

(٣) سورة ص الآية (٤٢).

صب له من المال صبا، مطراً عظيماً جراداً من ذهب. واخلف الله له أهله. كما قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُم﴾[1] فقيل أحياهم الله بأعيانهم، وقيل آجره فيمن سلف، وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم وجمع له شمله لكلهم في الدار الأخرة، وقوله ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي رفعنا عنه شدته، وكشفنا ما به من ضر، رحمة منا به ورأفة واحساناً. ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾. أي تذكرة لمن ابتلي في جسده أو ماله أو ولده، فله أسوة بنبي الله أيوب، حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب ففرّج الله عنه.

ونبي الله زكريا عليه السلام كفل السيدة مريم بنت عمران رضي الله عنها، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير أوانها وهذه من كرامات الأولياء، فعلم أن الرازق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً وإن كان قد كبر سنه، ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾ وقيل المراد بالموالي العصبة، وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني اسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون براً تقياً مرضياً ولهذا قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي من عندك بحولك وقوتك ﴿ولياً... يرثني﴾ أي في النبوة والحكم في بني اسرائيل، ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ. وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ يعني كما كان آباؤه واسلافه من ذرية يعقوب أنبياءً فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي.

وهكذا استجاب الله لدعاء نبيه زكريا عليه السلام واصلح له زوجه

(١) سورة الأنبياء، آية (٨٤).

حيث انها كانت لا تحيض فحاضت وانجبت له يحيى عليه السلام ذلك النبي الذي علمه الله الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ وآتيناهُ الحُكْمَ صَبِيّاً وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَومَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾(١). لقد كان يحيى عليه السلام حنوناً على الناس براً بوالديه طاهراً في أخلاقه سليماً من النقائص والرذائل ممتثلاً لأوامر ربه تاركاً زواجره، وبهذا كله استحق أن يسلِّم اللَّهُ عليه في مواطن ثلاثة هي أشد ما تكون على ابن آدم، لأنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم أخر فيفقد الأول بعدما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه، ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها.

وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل الى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير وفريق في الجنة وفريق في السعير!

أخرج عبد الرزاق في مصنفه عن سعيد بن المسيب رحمه الله مرسلاً قال «خرج رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم على أصحابه يوماً وهم يتذاكرون فضل الأنبياء فقال قائلٌ: موسى كليم الله. وقال قائل: عيسى روح الله وكلمته. وقال قائل: إبراهيم خليل الله. وهم يذكرون ذلك فقال: «أين الشهيد ابن الشهيد، يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب»! قال اين وهب:

(١) سورة مريم، الآيات (١٢-١٥).

يريد يحيى بن زكريا. وحول قول الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم «الشهيد ابن الشهيد» فقد أورد الحافظ ابن كثير رحمه الله قصة قتل زكريا عليه السلام بأنه هرب من قومه فدخل شجرة فقصوا الشجرة بالمنشار فقتلوه عليه السلام. وأما يحيى عليه السلام فقد أورد الحافظ ابن عساكر في قصة قتله من طريق العباس بن صبيح، عن مروان، عن سعيد بن عبد العزيز، عن قاسم مولى معاوية، قال: كان ملك هذه المدينة -يعني دمشق- هدار بن هدار، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة، قال: وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً. ثم أنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا، فقال: لا تحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا، وذلك باشارة أمها، فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه وهو قائم يصلي بمسجد جبرون من أتاه برأسه في صينية، فجعل الرأس يقول له: لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره- فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك، فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى حقويها[1]، وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن، ثم خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها، ففعل فلفظت الأرض جثتها عن ذلك، ووقعوا في الذل والفناء، ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً. قال سعيد بن عبد العزيز: وهي دم كل نبي. ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا

(١) الحقو: مربط الازار والسروال.

عليه السلام فقال: أيها الدم.. أفنيت بني اسرائيل فاسكن بإذن الله. فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس فتبعهم إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يحصون كثيرة وسبا منهم ثم رجع عنهم»[1].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله عن سعيد ابن المسيب رحمه اللّه قال: قدم بختنصر دمشق، فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي، فسأل عنه فأخبروه، فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن» قال الحافظ وهذا اسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضى أنه قتل بدمشق وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري...فالله أعلم».أ.هـ.

فابتلاء العبد المؤمن ووقوفه بين يدي ملك جواظ مستكبر ليقول كلمة الحق هو من أشد أنواع الإبتلاءات وذلك لما يرى من أسباب الموت أمامه، ولذلك قال الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم «إنَّ مِنْ أعظمِ الجهادِ كلمةُ عدلٍ عندَ سلطانٍ جائرٍ»[2].

إن قتل الأنبياء والصالحين سنّة سيئة سَنَّها بنو اسرائيل في أنبيائهم وصالحيهم ونراهم اليوم يدّعون حق الوصاية على المقدسات وعلى القدس مهد الديانات السماوية السابقة أولئكم أبناء القردة والخنازير سيطروا على ممتلكات المسلمين، احتلوا أراضيهم وملكوا زمام أمور القيادة في بلدانهم على حين غفلة وبُعْدٍ عن المنهج الرباني من قبل ساسة المسلمين وشعوبهم!.

---

(١) هذه الرواية رجالها ثقات وهي من الإسرائيليّات التي لا تخالف أصول شريعتنا وقد رخص لنا بروايتها كما جاء في الحديث الصحيح «وحدثوا عن بني أسرائيل ولا حرج....».

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي.

إن نبي الله يحيى عليه السلام الشهيد ابن الشهيد لم يقصر يوماً في تبليغ رسالة ربه، ففي الحديث الصحيح عن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال: «إنَّ اللَّهَ أمرَ يحيى بنْ زكريا بخمس كلمات أنْ يعملَ بهنَّ وأنْ يأمرَ بني إسرائيلَ أنْ يعملوا بهنَّ، وكادَ أنْ يبطئَ فقالَ له عيسى عليه السلام: إنَّك قد أمِرْتَ بخمس كلمات أنْ تعملَ بهنّ وتأمرَ بني اسرائيلَ أنْ يعملوا بهنَّ، فإمّا أنْ تُبَلِّغهُنَّ وإمَّا أنْ أبَلِّغَهُنَّ. فقال: يا أخي.. إنّي أخشى إن سبقتني أن أُعذَّبَ أو يخسفَ بي. قال فجمع يحيى بني اسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ أمرني بخمس كلمات أنْ أعملَ بهنَّ وآمرَكم أن تعملوا بهنَّ وأوَّلُهُنَّ أنْ تعبدوا اللَّهَ لا تُشركوا به شيئاً. فإنَّ مثلَ ذلكَ مثلُ منِ اشترى عبداً من خالصِ ماله بوَرِقٍ أو ذهبٍ فجعلَ يعملُ ويؤدِّي غَلَّتَهُ إلى غيرِ سيِّده، فأيّكم يسرُّهُ أنْ يكونَ عبدهُ كذلكَ، وإنَّ اللَّهَ خلقكم ورزقكم فاعبدوهُ ولا تُشركوا به شيئاً.

٢- وآمركم بالصلاة فإنَّ اللَّه يَنْصُبُ وجههُ قِبَلَ عبدهِ ما لم يلتفت فإذا صلَّيتم فلا تلتفتوا.

٣- وآمركم بالصيام فإنَّ اللَّهَ مثَّلَ ذلكَ كمثل رجل معه صُرَّة من مسكٍ في عصابةٍ كلُّهم يجدُ ريحَ المسكِ، وإنَّ خلوفَ فمِ الصائمِ أطيبُ عندَ اللَّهِ مِنْ ريحِ المسكِ.

٤- وآمركم بالصدقة، فإنَّ مثلَ ذلكَ كمثلِ رجلٍ أسرهُ العدو فشدّوا يدهُ إلى عنقهِ وقدَّموهُ ليضربوا عنقهُ فقال: هل لكم أنْ افتديَ نفسي منكم فجعلَ

يفتدي نفسَهُ منهم بالقليلِ والكثيرِ حتّى فكَّ نفسَهُ.

٥- وآمركم بذكرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ كثيراً، فإنَّ مثلَ ذلكَ كمثلِ رجلٍ طلبه العدوُّ سراعاً في أثرِهِ فأتى حصناً حصيناً فتحصَّنَ فيها، وإن العبدَ أحصنُ ما يكونُ مِنَ الشيطانِ إذا كانَ في ذكرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ. قال: وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «وأنا آمركم بخمسٍ اللَّهُ أمرني بهنَّ: بالجماعةِ والسَّمعِ والطاعةِ والهجرةِ والجهادِ في سبيلِ اللَّهِ، فإنَّ مَنْ خرجَ عَنِ الجماعةِ قيدَ شبرٍ فقدْ خلعَ ربقةَ الإسلامِ من عُنقِهِ إلا أنْ يرجعَ، ومَنْ دعا بدعوى الجاهليةِ فهوَ مِنْ حُثا جهنَّمَ» قال: يا رسولَ اللَّهِ.. وإنْ صامَ وصلَّى: قال: وإنْ صامَ وصلّى وزعمَ أنَّهُ مسلمٌ، ادعوا المسلمينَ بأسمائهم بما سمَّاهم اللَّهُ عزَّ وجلَّ المسلمينَ المؤمنينَ عبادَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ»[1].

وهكذا فإن المتأمل في هذه الوصايا يجد أن نبي الله يحيى عليه السلام أوصى قومه بأمور تتعلق بالعبادات لأن الجهاد لم يكن مفروضاً عليهم، ولذلك أقر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم هذه الوصايا وزاد عليها خمساً، الأمر بالجماعة لأن فيها قوةٌ ومنعةٌ للمسلمين ولا تكون الجماعة ولا يقوم بنيانها إلا على توحيد وجهتها وذلك بوجود أمير مطاع يرعى شؤونها ويحفظ مصالحها ويحكمها بشريعة الله التي تعزز مكانتها بين الأمم، ويعلن الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا. ولتكون كلمة الذين كفروا هي السفلى. والهجرة باقية إلى يوم القيامة، يفر المسلم بدينه من أرض الظلم والطغيان الى أرض العدل والإسلام.

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ووافقه شيخنا الألباني في صحيح الترغيب(٥٥٣).

فمن خرج على الجماعة التي سبق وصفها وشق عصا الطاعة وحاول اشعال نار الفتنة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يتوب إلى الله ويرجع إلى الجماعة ويخضع للأمير بالسمع والطاعة حتى ولو كان عبداً حبشياً لأن العبرة ليست بعلو النسب ولا بكثرة المال والخطب فإن الله تعالى خلق الجنة لمن أطاعه وإن كان عبداً حبشياً وخلق النار لمن عصاه، وإن كان سيداً قرشياً.

وهكذا تنتهي قصة استشهاد نبي الله يحيى عليه السلام على أيدي الغادرين قتلة الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، إلاّ أن مكر يهود وحقد يهود لم ينته بعد ولن ينتهي إلى يوم القيامة، قال تعالى عنهم ﴿وألقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوةَ والبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ القِيَامَة كُلَّمَا أوْقَدُوا نَاراً للحَرب أطْفَأهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ في الأرضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ المفْسِدِينَ﴾[1].

لقد حاولوا ايذاء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بسحرهم فأنجاه الله من ذلك وحاولوا قتله مراراً كما فعلوا بالأنبياء من قبل فرد اللّه كيدهم في نحورهم، إلا أن الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم مات متأثراً بسمٍّ وضع له في الطعام كما أوردته كتب الصحاح. وقتل عمر الفاروق أمير المؤمنين رضي الله عنه في محرابه وهو يصلي بالمسلمين، وقتل عثمان ذو النورين رضي الله عنه في بيته. وفي قصة قتله رضي الله عنه دلالة واضحة على مخالفة الخوارج والباطنية لوصايا رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم الخمس.

روى الحافظ ابن عساكر بسنده أن عثمان لما عزم على أهل الدّار في الإنصراف ولم يبق عنده سوى أهله تسوروا عليه الدار وأحرقوا الباب ودخلوا

(١) سورة المائدة، الآية (٦٤).

عليه، وليس فيهم أحد من الصحابة ولا أبنائهم، إلا محمد بن أبي بكر، وسبقه بعضهم، فضربوه حتى غشي عليه وصاح النسوة فانذعروا وخرجوا ودخل محمد بن أبي بكر وهو يظن أنه قد قتل، فلما رآه قد أفاق قال: على أي دين أنت يا نعثل؟ قال: على دين الإسلام، ولست بنعثل ولكني أمير المؤمنين، فقال: غيرت كتاب الله، فقال: كتاب الله بيني وبينكم، فتقدم إليه وأخذ بلحيته وقال: إنا لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول: ﴿رَبَّنا إنّآ أطَعْنا سَادَتَنا وَكُبَراءَنَا فَأضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ وشطحه بيده من البيت إلى باب الدار، وهو يقول: يا ابن أخي ما كان أبوك ليأخذ بلحيتي. وجاء رجل من كندة من أهل مصر، يلقب حماراً، ويكنى بأبي رومان. وقال قتادة: اسمه رومان، وقال غيره: كان أزرق أشقر، وقيل كان اسمه سودان بن رومان المرادي. وعن ابن عمر قال: كان اسم الذي قتل عثمان أسود بن حمران ضربه بحربة وبيده السيف صلتا قال ثم جاء فضربه به في صدره حتى أقعصه، ثم وضع ذباب السيف في بطنه واتكئ عليه وتحامل حتى قتله، وقامت نائلة دونه فقطع السيف أصابعها رضي الله عنهما، ويروى أن محمد بن أبي بكر طعنه بمشاقص في أذنه حتى دخلت في حلقه. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله والصحيح أن الذي فعل ذلك غيره، وأنه استحى ورجع حين قال له عثمان: لقد أخذت بلحية كان أبوك يكرمها. فتذمم من ذلك وغطى وجهه ورجع وحاجز دونه فلم يفد وكان أمر الله قدراً مقدورا، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً.

وقتلت الخوارج علياً أمير المؤمنين رضي الله عنه في المسجد، قتله عبد الرحمن بن ملجم -قبحه الله- بسيفٍ مسموم في قرنه فسال الدم على لحيته الشريفة، وقُبض على المجرم الخارجي فقال له أبو الحسن رضي الله عنه ما الذي

دفعك إلى هذا، ألم أحسن إليك؟ فقال له القبيح المارق من الدين لقد شحذته أربعين صباحاً لأقتل فيه شر خلق الله! فقال أمير المؤمنين اقتلوه بسيفه فإنه من شر خلق الله.

وقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما بالكوفة في المكان الذي قتل فيه أبوه ولكن فعل برأسه كما فعل برأس يحيى عليه السلام حيث قُدِّم بين يدي عبيدالله بن زياد -قبحه الله-..

وأكتفي بهذا القدر من قصص الصحب الكرام وتحملهم الشدائد وصبرهم على الابتلاءات، **وقد أوردتها هنا لما لها من أثر بالغ في تصحيح مفاهيم أولئك الذين يحاولون الخروج على جماعة المسلمين ومخالفة وصية رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم «...فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»**

وهناك نوع آخر من الإبتلاءات ألا وهو ابتلاء العبد بالنعم والرغائب، وما يلزم من أداء الشكر للمنعم المتفضل جل في علاه وقليل من عباد الله الشكور.

لما سمع نبي الله سليمان عليه السلام كلام النملة وفهم قصدها شكر الله على النعمة ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[1]. ولما رأى عرش ملكة اليمن مستقراً عنده قد جيئ به قبل أن

(١) سورة النمل، الآية (١٩)

يرتدَّ إليه طرفه قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(١).

أما نبي الله يوسف عليه السلام فقد ابتلي بالشدائد حين القي في البئر فصبر ففرج الله عنه وأبدله بعيشةٍ في قصرٍ يرتع فيه كيف يشاء فإذا كانت مرحلة الإبتلاء بالشدائد قد ولّت واجتازها يوسف عليه السلام بسلام، فإن مرحلة الإبتلاء بالنعم والجاه قد بدأت منذ أن حلَّ في بيت العزيز ولا بد من اجتيازها بسلام أيضاً. ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾(٢)

يذكر تعالى ما كان من مراودته امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه مالا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال، والمنصب والشباب. وكيف غلّقت الأبواب عليها وعليه، وتهيأت له وتصنعت، ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهي مع هذا كله امرأة الوزير. قال ابن اسحاق وبنت اخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر. وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء، إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه من مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء، المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء، في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء: «سبعةٌ يُظِلُّهُم اللَّهُ في

(١) سورة النمل، الآية (٤٠)

(٢) سورة يوسف الآية (٢٣).

ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلاَّ ظلُّه: إمامٌ عادلٌ، ورجلٌ ذكرَ اللَّهَ خالياً فَفاضَتْ عيناهُ ورجلٌ معلقٌ قلبُهُ بالمسجدِ إذا خرجَ منهُ حتَّى يعودَ إليه، ورجلانِ تحابّآ في اللَّه اجتمعَا عليهِ وتفرَّقا عليه، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقة فأخفاها حتَّى لا تعلمَ شمالُهُ ما تُنْفِقُ يمينُهُ، وشابٌّ نشأ في عبادةِ اللَّهِ ورجلٌ دعتهُ امرأة ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقالَ إنِّي أخافُ اللَّهُ».

وما كاد هذا المشهد أن ينتهي حتى شاع الخبر في ارجاء المدينة، فما كان من نساء الأمراء وبنات الكُبراء إلا أن شرعن في الطعن والتشنيع على امرأة العزيز في سوء صنيعها ومراودتها فتاها، وحبها الشديد له، وهو لا يساوي هذا، لأنه مولى من الموالي وليس مثله أهلاً لهذا. ولهذا قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي في وضعها الشيء في غير محله... ومعنى ذلك أنه لو كان حراً وذا منصب وجاه فلا حرج في مراودتها له، وهذا ما نراه اليوم ونسمع عنه في الصحف والمجلات وعلى شاشات التلفاز عن أحوال الأسر الارستقراطية من تقبيل وعِناقٍ وتبادلٍ في الزوجات خلال الحفلات الراقصة في النوادي الليلية، ومن لا يتمشى مع هذه السنن الجاهلية فلا يستحق أن يعطى المناصب العلية!.

لم يهدأ بال امرأة العزيز بسبب ما قالته عنها نسوة المدينة، فأرسلت إليهن بدعوة خاصة ليجتمعن في بيتها عسى أن ترفع الملامة عن نفسها إذا شاهدن حُسن وجمال الفتى الذي راودته عن نفسها مخترقة للعادات والأعراف في الأُسر المتحضرة!. وبالفعل تم اللقاء وجلست النسوة على مائدة الضيافة وبيد كل واحدة منهن سكيناً لتقطع بها ما لذَّ وطاب من الفاكهة الشهية، وبينما هنَّ على تلك الحال إذ خرج عليهنَّ يوسف عليه

السلام بكامل زينته، فبهرهنَّ حُسنه وجماله حتى اشتغلن عن أنفسهنَّ، وجعلن يجززن في أيديهنَّ بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وازداد البلاء على يوسف عندما قامت بقية النساء بتحريضه على السمع والطاعة لسيدته، فأبى أشد الأباء ونأى لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ يعني إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله. فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني، وأحطتني بحولك وقوتك.

ومع وضوح براءة يوسف عليه السلام إلا أنهم حكموا عليهَ بالسجن ظلماً وعدواناً وذلك للتقليل من كلام الناس حول تلك القضية، وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به، فأنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم. هكذا يُتّهم الرجل المؤمن بما لم تقترف يداه، وتتهم العصابة المؤمنة بغير ذنبٍ إلاّ أنّها تطالب بتحكيم شرع الله، يتهمونهم وينعتونهم بنعوتٍ ومسمياتٍ تتلاءم مع الزمان الذي يعيشونه وفي زماننا هذا يقولون أصولي أو أصولية... متطرف أو متطرفة... متشدد أو متشددة.. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[1]. لقد دخل يوسف عليه السلام السجن مظلوماً

(١) سورة الذاريات، الآيتان (٥٢-٥٣).

مقهوراً وخرج منه بعد فترة مهيوباً منصوراً، حيث أن الله تعالى أظهر براءته على لسان من اتهمته بالمراودة وهي إمرأة العزيز نفسها ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾. أي بَريءٌ من التهم وأنه لم يراودني وأنه سجن ظلماً وعدواناً وزوراً وبهتاناً...

ولما ظهر للملك براءة عرضه، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه عما نسبوه إليه ﴿قَالَ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي أجعله من خاصتي ومن أكابر دولتي، ومن أعيان حاشيتي، فلما كلمه وسمع مقالته وتبين حاله ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدينا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي ذو مكانة وأمانة: وبعد هذا العرض من الملك طلب منه يوسف عليه السلام أن يوليه منصب الإشراف على دار الخزانة السلطانية وذلك ليثبت جدارته في إدارة شؤونها بعد سِنيِّ الخصب وقدوم سنيِّ الجدب. وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة، وأنه لا جناح على المسلم أن يعمل عند الكافر مع الحرص على الصدق والأمانة أثناء تأدية العمل ليكون عمله بمثابة دعوة إلى الإسلام وهذا ما فعله تجار المسلمين خلال تعاملهم مع تجار الصين الكفرة وكان ذلك سبباً في انتشار الإسلام في تلك البلاد.

وكذلك يجوز للمسلم أن يرشح نفسه لولاية أو وظيفة في دولة اسلامية ذات نظام سماوي بشرط أن يكون عليماً بمكنوناتها حفيظاً لأماناتها. أما في حالة الردة وعدم التحاكم إلى شرع الله مع القدرة على ذلك في أي دولة من الدول فإنه لا يجوز للمسلم أن يرشح نفسه لأي وظيفة في إطار النظم والقوانين البشرية والدليل على ذلك من سيرة المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم حيث أنه بُعِثَ إلى أقوام تعيش في ظلمات ثلاث: ظلمة العقائد وظلمة

القوانين والسياسة وظلمة الأنفس الأمارة أما ظلمة العقائد فتتمثل في عبادتهم للأحجار والأقمار والأشجار والجِنّة الأشرار فجاء الإسلام ليبطل ذلك كله ويوجّه الناس إلى عبادة الله الواحد القهار.

وأما ظلمة القوانين والسياسة فقد كان يسود الظلم والجور المجتمع الجاهلي وكانت السيادة والسيطرة للأقوياء على الضعفاء وللأغنياء على الفقراء شريعة الغاب التي تعلو فيها الأهواء والنزوات على القيم والأخلاقيات. فجاء الإسلام ليحرر الناس من هذه الأنظمة الجائرة التي يستعبد فيها البشر بعضهم بعضاً، وينقلهم إلى نظام إلهي سماوي يتميّز بالعدالة الاجتماعية والمساواة بين أصناف البشرية لا فرق بين عربي وأعجمي ولا بين غني وفقير ولا بين قوي وضعيف ولا بين أسود وأبيض إلا بالتقوى وأما ظلمات النفس الأمارة فعلاجها الترويض على عمل الصالحات وتجنب فعل المنكرات وكثرة الاستغفار والتوبة مما قد يقترف العبد من السيئات ولما سمع القوم بدعوة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وتعرفوا على مدلولاتها انكروها أشد الإنكار وعميت عن حقائقها العقول والأبصار علماً أنها جليَّةٌ كالشمس في وضح النهار.

فلما رأوا إصراره على المضي في الدعوة أخذوا يفاوضونه على دنياهم شريطة أن يترك هذه الدعوة، فعرضوا عليه أن يجعلوه ملكاً عليهم ويجمعوا له من الأموال ما يمكنه من إدارة مملكته فرفض كل ما عرض عليه من متاع الدنيا الزائل ولم يقتد بيوسف عليه السلام لأنه يعلم أن الله اختار لدينه سبيلاً محددة لنشره وهي تختلف عن سبل الرسل الكرام حيث أنه يحمل تعاليم الإسلام في يد والحديد ذا البأس الشديد في اليد الأخرى وذلك ليقدم الحجة والبرهان أولاً فمن أبى فيستخدم معه السيف والسنان وعلى هذا فيكون

الترشيح لمجالس التشريع باطلاً طالما يستوجب على المسلم أن يحترم ويدافع عن قوانين ونظم مستبدة وهي من صنع البشر!.

ومن ناحية أخرى فإن نبي الله يوسف عليه السلام هو الذي اختار المنصب الذي يريد بحيث يديره كما يريد هو لا كما يريد الملك ولذلك كان تعيينه في هذا المنصب سبباً في دخول الملك ورعيته في الإسلام وأعني الإسلام العام الذي دعى إليه جميع الرسل الكرام أما إسلامنا فهو إسلام خاص لا يقبل الله من العباد ديناً سواه.

فإذا كان العبد قادراً على تغيير الأوضاع الجاهلية إلى أوضاع إسلامية تحكمها شريعة إلهية من غير أن يذل نفسه أو أن يُحرِّفَ الكَلِمَ عن مواضعه أو أن يوافق الجاهلية في بعض دساتيرها المخالفة لنصوص الكتاب والسنة، عندئذٍ فقط جاز له ترشيح نفسه لولايةٍ معينةٍ أو ولايات. أما إذا كان المرشح ضعيف الكلمة وإذا تكلم في مجلس الملك أو السلطان لم يسمع له ولو سمع له لم يستجاب لمطالبه بل يمكن أن يتخذ كلامهُ هزواً، فيحرم عليه أن يشارك في مثل هذه المجالس الجاهلية والتي لو استمر فيها فإنه يخشى على إيمانه من الضياع وعلى شخصيته من المياع لأنه لا يملك مقومات الصمود والدفاع وخصوصاً إذا تحصن المفسدون في القلاع ونبذوه وحيداً في غور البقاع!.

لقد فرحت يوم فاز الإخوان بحوالي ثلث مقاعد مجلس النواب واستبشرت خيراً بوصولهم إلى رئاسة المجلس ولكن هذه الفرحة سرعان ما اختفت ملامحها عندما حللت زائراً على أرض وطني بعد فترة غياب طويلة فأمرت بالإنتظار حتى دخل القادمون جميعاً ولم يبق أحد سواي فبادرني

مسؤول الأمن بالسؤال عن انتمائي الحزبي؟ فقلت له. لا أنتمي لأي حزب من الأحزاب السياسية، ثم كرر سؤاله ولكن بصورة أوضح فقال لي: هل أنت من الإخوان؟ فقلت: سبحان الله! ولماذا تسألني عن الإخوان دون سواهم، أليس رئيس مجلس النواب واحداً منهم؟ لقد سمعت وأنا في الغربة خبراً يفيد أن الأردن قد اختار الديموقراطية نهجاً وسبيلاً أليس كذلك؟ قال: بلى فقلت: ولماذا سمحت للجميع بالدخول وأوقفتني للإستجواب؟ وهل اللحية شعار لأهل الفجور أم أنها شارة مميزة للمتقين الأبرار تورثوها عن المصطفى المختار صلّى اللّه عليه وسلّم؟! فسكت وخلى سبيلي.

هذه حادثة من حوادث عديدة ومصيبة من مصائب شديدة تصيب الأمة فتحدث فيها موازين جديدة يكذَّب فيها الصادق ويخوّن فيها الأمين وتصبح الفئةُ المؤمنةُ في إعلامهم فريدةً طريدةً...

لقد جرت انتخابات ديموقراطية في الجزائر وصوّت الشعب في أكثريته لصالح الإسلاميين الذين يريدون تحكيم القوانين السماوية والشريعة المحمدية في حياة الناس والتخلص من رواسب الجاهلية المتمثلة بالأنظمة الوضعية والمستقاة من القوانين الفرنسية وغيرها من الدول الإلحادية فما كان من أنصار الديموقراطية ودعاة الحرية إلا رفض النتائج الإنتخابية والإنقضاض على السلطة من قبل الجيش وفرض الأحكام العرفية والقبض على المشايخ والزج بهم في غيابت السجون بتهمة التشدد ومحاولة تشتيت القوى الوطنية إلى غير ذلك من التهم التي تتشدق بها الوسائل الإعلامية...

فبالله عليكم أين العدالة الاجتماعية التي بها ينادون؟! وأين القيم

الأخلاقية التي بأضدادها يتمسكون؟! لا جرم أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون وأنهم على أبواب جهنم قائمون يدعون الناس إلى ضلالهم وهم عن الصراط السوي ناكبون... ومع كل ذلك يحسبون أنهم مهتدون...!

إن الظروف الحياتية التي نعيشها في هذه الأيام لهي من البلايا العظام التي تتطلب الصبر على مواصلة المسير على نهج سيد الأنام عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام وقدوتنا من الأئمة الأعلام ومهما نعتونا بنعوت -هم أولى بها وأهلها- فلن نرتضي غير الإسلام ديناً ونظام حياة يصلح حال جميع الأنام.

يقول الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصّغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقومٍ فهو منهم»[1].

إن قائل هذا الكلام هو نبي الرحمة الذي قال فيه ربه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ وامتدح أخلاقه بقوله ﴿وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ثم ها هو يشير إلى استخدام السيف في دعوته، فهل السيف وسيلة تتنافى مع مقتضيات الرحمة؟

الجواب بالنفي لأن الدعوة تكون على مرحلتين:

(١) رواه الإمام أحمد وأبو يعلى والطبراني وهو حديثٌ صحيح.

الأولى: بالحجة والبيان ووسيلتها اللسان.

الثانية: بالقسر والسلطان ووسيلتها السيف والسنان. فمن قبل وسلّم في الأولى كفيَ الثانية ومن لم يقبل ويسلّم في الأولى بل عاند واستكبر وأراد أن يصد عن سبيل الله فلا بد من أن يواجه الثانية حتي يخضع لأمر الله وهو ذليلٌ صاغر.

فالمسلم لا يخاف من الإسلام لأنه لا يزيده من إلهه إلا قرباً، أما الكافر فيشعر بالخوف من الإسلام لأنه لا يزيده من آلهته إلاّ بعداً... ولهذا وذلك فقد سلط السيف على رقاب أهل الكفر المعاندين رحمة بهم وعليهم إذا أسلموا ورحمة بغيرهم إذا قتلوا واستريح من شرهم. والجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام فمن أراد أن يعطل الجهاد ويجعله في حكم المنسوخ في حياته فلينتحل ملةً غير الإسلام حيث لا جهاد ولا قتال. وإن تركه تهاوناً فمات؛ مات على شعبه من النفاق.

يقول النبي صلّى الله عليه وسلّم «مَنْ ماتَ ولَمْ يَغْزُ، ولَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفاقِ»[1].

وعن سلمة بن نفيل الكندي قال: كنت جالساً عند رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم، فقال رجل: يا رسول الله، أزال الناس الخيل ووضعوا السلاح، وقالوا: لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها! فاقبل رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم وقال: «كذبوا، الآن جاء القتال، ولا يزال من أمتي أمةٌ، يقاتلون على

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي.

الحق، ويزيغُ الله لهم قلوب أقوام، ويرزقهم منهم، حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، والخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وهو يوحى إليَّ أني مقبوض غير ملبَّث، وأنتم تتبعوني أفناداً، يضرب بعضكم رقاب بعض، عقر دار المؤمنين الشام»[1].

وبعد هذا الإسهاب في القول حول أمرٍ هام من أمور المسلمين اليوم نعود إلى نبي الله يوسف عليه السلام وقد جلس على عرش مصر ومن حوله أهله وأحباؤه يسبح بحمد ربه ويناجيه متذللاً ويقول ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

وهكذا ينبغي على العبد أن يشكر الله في السراء والضراء... وفي الرغائب والمصائب فإذا فعل ذلك فاز بنعيمي الدنيا والآخرة. جعلنا الله من الشاكرين له على النعماء والصابرين على البلاء راجين الرضى والقبول من رب الأرض والسماء.

---

(١) حديث صحيح. انظر صحيح النسائي (٣٣٣٣).

(٧)
لكل داء دواء

لقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم -على اختلاف اجناسها ومللها ونحلها- على أن التقرب إلى الله رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمته بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه.

ولما كان الداء واحداً من الشرور التي قد تصيب الإنسان في حياته وتحول سعادته إلى شقاء، وراحته إلى نكد وعناء... فيسعى جاهداً لدفعه عن نفسه مهما غلى ثمن الدواء.

فإننا في هذه الحلقة نقطف ثمرة جديدة -وهي السابعة- من ثمار حدائق النبوة من خلال القصة التي يحدثنا بها النبي المصطفى والرسول المجتبى صلّى اللّه عليه وسلّم حيث يقول متمماً «...وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله تعالى...».

لقد ارتقى الغلام في درجات الإيمان حتى بلغ مرحلة الولاية فأعطي

الكرامة وأتى بخوارق العادات وما هو فوق مقدور المخلوقات، فإذا به يعالج الأكمه -وهو المولود أعمى- فيبرأ بإذن الله، حيث لا يعرف الطب كيف يردُّ اليه البصر إلى وقتنا هذا ولكن الله الذي يهب البصر أصلاً قادر على أن يفتح عينيه للنور. وكان أيضاً يبرئ الأبرص بإذن الله لا بدواء، والدواء وسيلة لتحقيق أمر الله في الشفاء وصاحب الأمر قادر على تغيير الوسيلة، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة.

فشاع صيت هذا الغلام في البلاد حتى سعى إليه الحاضر والباد طلباً لعلاج الأجساد. وكان جليس للملك قد أصيب بالعمى من بين الذين قدموا على الغلام من أجل العلاج، ولما كان هذا الأخير من أكابر القوم فقد جاء حاملاً الهدايا الكثيرة والعطايا الجزيلة بما يتناسب مع مكانته الرفيعة ووضعها بين يدي الغلام مكافأة على حسن الصنيع وتقديراً لصاحب العمل البديع. ولكن الغلام صاحب العقيدة السليمة والأخلاق النبيلة لم يتأثر قلبه بدنيا الناس ولم تشرف نفسه على ما يجمع له مقابل علاجه لمرضى الناس، بل كان همه أن يصحح عقيدتهم ويطهر قلوبهم من الأرجاس فقال: «إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى فإن آمنت بالله دعوتُ الله تعالى فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله تعالى...»

إن الذي أنزل الداء هو وحده القادر على الشفاء، وما الإنسان والدواء إلاّ وسائل وأسباب لا تبرئ إلاّ بإذن الله. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم: «لكلِّ داءٍ دواءٌ: فإذا أصيبَ دواءُ الدَّاءَ برأ بإذنِ اللَّه».

وقال أيضاً: «إنّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ داءً إلاّ أنْزَلَ لَهُ شفاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ،

وجَهلَهُ مَنْ جَهِلَهُ إلاّ السَّامُ وَهُوَ الْمَوْتُ». وفي لفظ آخر: «إنَّ اللَّهَ تَعَالى لَمْ يُنْزِلْ داءً إلاَّ أَنْزَلَ لَهُ شِفاءً، إلاّ الهَرَمُ، فَعَلَيْكُمْ بِأَلْبَانِ البَقَرِ، فَإِنَّها تَرُمُّ مِنْ كُلِّ شَجَرٍ»[1].

والغلام لم يكن طبيباً قد درس الطب وبرع فيه، ولم يكن يوماً ممارساً لصناعة الدواء، ومع ذلك كان يداوي من سائر الأدواء، وكان يعتمد في علاجه على وسيلةٍ واحدة هي الدعاء، فلما آمن الرجل شُفيَ من العمى وارتدّ بصيراً بإذن الله.....

فالدعاء من أنفع الأدوية وهو عدو البلاء، يدفعه ويعالجه، ويمنع نزوله ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن. وهو من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثره عنه لأسباب ثلاثة:

١- أن يكون دعاءً لا يحبه الله لما فيه من العدوان.

٢- عدم توجه القلب إلى الله في وقت الدعاء فيكون صعوده كخروج السهم من القوس الرَّخو جداً.

٣- وجود أحد موانع الإجابة مثل أكل الحرام، وكثرة المعاصي وغيرها..

يقول ابن القيم رحمه الله: «والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحدِّه فقط. فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود -حصلت النكاية في العدو. ومتى تخلف

(١) أخرجهما الحاكم في المستدرك وهما حديثان صحيحان. انظر صحيح الجامع (١٨٠٥-١٨٠٦).

واحد من هذه الثلاثة. تخلف التأثير، فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثَمَّ مانع من الإجابة لم يحصل الأثر».

ومن مستوجبات الإجابة الإلحاح في الدعاء وعدم استعجال الإجابة لقول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم: «لا يزَالُ يُستجابُ للعبدِ ما لمْ يَدْعُ بإثمٍ أوْ قطيعةِ رحمٍ مالمْ يستعجلْ، يقولُ: قدْ دَعوتُ وقدْ دَعوتُ فلمْ يُستجَبْ لي، فَيَسْتَحْسِرُ عِندَ ذلكَ وَيَدَعُ الدُّعاءَ»[1].

فإذا جمع العبد مع الدعاء حضور القلب واختار وقتاً من أوقات الإجابة المأثورة وهي:

١- الثلث الأخير من الليل.

٢- عند الأذان وعند نزول المطر وعند التقاء الجيوش.

٣- بين الأذان والإقامة.

٤- في السجود وأدبار الصلوات المكتوبات.

٥- عند صعود الإمام المنبر يوم الجمعة حتى تقضى الصلاة، وفي آخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم.

وإذا كان الداعي على طهارة مستقبلاً القبلة رافعاً يديه إلى الله متذللاً متضرعاً بين يدي مولاه جل في علاه، مبتدئاً دعاءه بحمد الله والثناء عليه ومصلّياً على مصطفاه محمدٍ صلّى اللّه عليه وسلّم معلناً التوبة من صغائر

(١) رواه مسلم.

الذنوب وكبائرها، متوسلاً إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ملحاً في الدعاء داعياً ربه رغبة ورهبةً خاشع القلب منكسر الخاطر، مقدماً صدقة بين يدي الدعاء، فإنَّ هذا الدعاء مع هذه المقتضيات لا يكاد يرد أبداً. لا سيما إن اشتمل على أدعيةٍ حث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على المواظبة عليها مظنة الإجابة ومن هذه الأدعية:

١- ما جاء في جامع الترمذي عن أسماء بنت يزيد أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال: «إسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وفاتحة آل عمران ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم﴾»[١].

٢- وعن بريدة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سمع رجلاً يقول: اللهم اني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال «دعا اللّه باسمهِ الأعظمِ الذي إذا سئلَ بهِ أعطى، وإذا دعي بهِ أجابَ»[٢].

٣- وعن أنس أنه كان مع رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم جالساً ورجلٌ يصلي ثم دعا فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد. لا إله إلا أنت الحنّان المنّان بديع السَّموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام، يا حيٌّ يا قيُّوم أسألك فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «دعا اللّه باسمهِ الأعْظَمِ الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطىَ»[٣].

(١) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجة واسناده حسن.
(٢) رواه الترمذي وأبو داود واسناده صحيح.
(٣) رواه أحمد والأربعة وإسناده صحيح.

٤- وعن أنس قال: كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إذا كربه أمر قال: «يا حيُّ يا قيومُ برحمتكَ أستغيثُ»(١).

٥- وعن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال: «دعوة ذي النونّ، إذ دعَا وهوَ في بطنِ الحوت ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنَّه لمْ يدعُ بها رَجُلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطُّ إلا استجابَ اللَّه لهُ» قال الترمذي: حديثٌ صحيح.(٢)

٦- وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم كان يقول عند الكرب: «لا إله إلاَّ اللَّه العظيمُ الحليمُ، لا إله إلاَّ اللَّه ربُّ العرش العظيمِ، لا إله إلا اللَّه ربُّ السَّمواتِ السَّبع وربُّ الأرضِ وربُّ العرشِ الكريمِ».

٧- عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما أصابَ أحداً قطَّ همٌّ ولا حزنٌ، فقال: اللَّهمَّ إنِّي عبدُكَ ابْنُ عبدكَ ابنُ أمَتكَ، نَاصيتي بيَدكَ، ماضٍ فيَّ حكمُكَ، عدلٌ فيَّ قضاؤُكَ، أسألُكَ اللَّهمَّ بكلِّ اسمٍ هو لكَ، سمَّيتَ به نفسَكَ، أو علَّمتَهُ أحداً منْ خلقكَ، أوْ أنزلتَهُ في كتابكَ أوْ استأثرتَ به في علْمِ الغيبِ عندَكَ، أنْ تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهابَ همِّي، إلاَّ أذهبَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ همَّهُ وحزنهُ، وأبدلَهُ مكانَهُ فرحاً، فقيلَ: يا رسولَ اللَّه، ألا نتعلَّمُها؟ قالَ: بلَى ينبغي لِمَنْ سمعَها أنْ يتعلَّمَها»(٣).

---

(١) رواه الترمذي وحسنه شيخنا الألباني.

(٢) رواه أيضاً الحاكم وصححه شيخنا الألباني.

(٣) حديث حسن رواه الإمام أحمد. انظر كتابنا تهذيب الأذكار (٢٥٨).

٨- وروى أبو دواود بسندٍ حسن عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «دعواتُ المكروب: اللَّهمَّ رحمتَكَ أرجو فَلا تَكِلْني إلى نَفْسي طرفَةَ عينٍ، وأصلحْ لي شأني كلَّهُ، لا إلهَ إلاّ أنْتَ».

وعوْداً إلى مقولة الغلام «فإن آمنتَ باللَّه دعوتُ اللَّهَ فشفاكَ؛...» أي أنه أراد أن يبين أن علاج القلوب أولى من علاج الأبدان، فإذا عوفيت القلوب من أدرانها عوفيت الأجساد من أسقامها.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: «فمما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا بد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟ فما الذي أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبدّل بالقرب بعداً، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحاً، وبالجنة ناراً تلظّى، وبالإيمان كفراً، وبموالات الولي الحميم أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينيه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه ومقته أكبر المقت فأرداه، فصار قواداً لكل فاسق ومجرم رضى لنفسه بالقياد بعد تلك العبادة والسيادة فعياذاً بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟

وما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية، ودمرت ما أتت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صارت عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قومَ ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع القرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعاً، ثم أتبعها حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليه من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها وما هي من الظالمين ببعيد؟

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظل فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظّى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوحٍ بأنواع العقوبات،ودمرها تدميراً؟

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث على بني اسرائيل قوماً أولي بأسٍ شديد، فجاسوا خلال

الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيراً.

وما الذي سلط عليهم بأنواع العقوبات، مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[1] أ.هـ.

فالذنوب والمعاصي هي من شر الأدواء التي تصيب المخلوقات المكلفة وعاقبتها وخيمة في الدنيا والآخرة إذا لم تعالج بالتوبة والإنابة والإستسلام الكامل لأوامر الخالق جل في علاه. وهذا الداء العضال يقلب الأحوال، إذا أصاب قوماً صيّر عزّهم ذلا، وغناهم فقراً، وأمنهم خوفاً، ونعيمهم ضنكاً، وقوتهم ضعافاً، وحريتهم استعباداً ورقاً...

وهذا الفهم هو الذي جعل الصحابي الجليل أبا الدرداء يبكي في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، وفتحت فيه قبرص وتشتت أهلها، وبكى بعضهم بعضاً، فلما سئل عما يبكيه؟ قال للسائل: ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم، فأقبل علينا رسول الله

(١) سورة الأعراف الآية (١٦٧).

صلّى اللّه عليه وسلّم بوجهه فقال: «يَا مَعْشَرَ المُهَاجرينَ: خصَالٌ خَمْسٌ إذَا ابتُليُمْ بهنَّ، وأعوذُ باللّه أنْ تُدرِكُوهُنَّ: لمْ تَظْهَرِ الفَاحشَةُ في قَومٍ قَطْ؛ حتَّى يُعْلنوا بِهَا، إلاّ فَشَافِيهمُ الطَّاعونُ والأوْجاعُ التَّي لمْ تَكُنْ مَضَتْ في أسْلافِهمْ الّذين مضواْ، ولمْ يَنْقُصُوا المكْيَالَ والميزانُ إلاَّ أخذُوا بالسِّنينَ وشدَّة المؤونة، وَجَوْرِ السلطان عليهمْ، ولمْ يمنَعُوا زكاةَ أموالهمْ إلاَّ مُنعُوا القَطْرَ منَ السَّماء، وَلوْلا البَهَائمُ لمْ يُمْطَرُوا، ولمْ يَنْقُضُوا عهدَ اللّهَ وعهدَ رسوله إلاَّ سلَّط اللَّهُ عليهمْ عدوَّهُم منْ غيرهمْ، فأخَذُوا بَعْضَ ما كانَ في أيْديهمْ، ومَا لمْ تَحْكُمْ أئمَّتُهُمْ بكتابِ اللّهِ عزَّ وَجلَّ وَيَتَحرَّوا فيمَا أنزلَ اللَّهُ إلاَّ جَعلَ اللَّهُ بَأسَهمْ بَيْنَهُمْ»(١) وعنه قال: «سمعتُ رسولَ اللَّه صلّى اللَّه عليه وسلّم يقول: «إذا ضَنَّ النَّاسُ بالدِّينارِ والدِّرهمِ وتَبَايَعُوا بالعينَة، وتَبعُوا أدنَابَ البَقَرِ، وتَرَكُوا الجهَادَ في سَبيلِ اللّهِ أنزَلَ اللّهُ بِهِم بَلاءً لا يَرفَعَهُ حَتَّى يُرَاجعُوا دينَهُمْ»(٢).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وسلّم قال: «إيّاكُمْ ومُحقِّراتُ الذُّنوب، فإنّما مَثَلُ مُحَقَّرَات الذُّنوب كمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بعودٍ، حتَّى حَمَلُوا ما أنْضَجُوا به خُبْزَهُمْ. وإنَّ مُحَقِّرَاتِ الذُّنوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُها تُهْلكُهُ»(٣). وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال: «تُوشكُ القُرَى أنْ تَخْرَبَ وَهيَ عَامرَةٌ، قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذَا عَلاَ فُجّارُهَا أبْرَارَهَا وَسَادَ القَبِيلَةَ مُنَافقُوهَا».

(١) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع (٧٨٥٥).

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع (٦٨٨).

(٣) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع (٢٦٨٣).

وقيل لحذيفة: في يوم واحد تركت بنو اسرائيل دينهم قال لا، ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه، وإذا نهو عن شيء ركبوه، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه».

ومن ههنا قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن القبلة بريد الجماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت.

وها هنا نكتةٌ دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فينسى، ويظن العبد أنه لا يغير بعد ذلك، وسبحان الله! كم أهلكت هذه النكتة من أناس، وكم أزالت غبار نعمة وجلبت من نقمة، وما أكثر المغتربين بها من أهل العلم والفضل والصلاح فضلاً عن الجُهَّال! ولم يعلموا أن الذنب يَنْقَضَّ ولو بعد حين كما ينقضُّ السُّم وكما ينقضُّ الجرح المندمل على الغش والدغل.

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وقد توسع في ذكرها الأئمة العلماء في كتبهم، أمثال الإمام أحمد في كتاب الزهد، والإمام الغزالي في الإحياء، والإمام ابن القيم في الجواب الكافي وفي الفوائد وها أنذا ألخص بعض ما أوردوه من آثار المعاصي:

١- حرمان العلم فان العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور. والإمام الشافعي رحمه الله يقول:

شكوت إلى وكيعٍ سوء حفظي ... فأرْشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم فضلٌ ... وفضل اللّه لا يؤتاه عاصي

٢- حرمان الرزق وتعسير الأمور، وكما أن تقوى الله مجلبةٌ للرزق وميسرة للأمور، فترك التقوى مجلبه للفقر ومعسِّرةٌ للأمور.

٣- وحشةٌ يجدها العاصي في قلبه وبينه وبين الله وعباده.

٤- ظلمة يجدها في قلبه حقيقية يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج من ظلمة الليل يمشي وحده، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سواداً فيه يراه كل أحد.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن للحسنة ضياء في الوجه، ونوراً في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهناً في البدن. ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق».

٥- أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته، وكما أن البر يزيد في العمر، فإن الفجور يقصر العمر. ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب، فالأرزاق والأجساد، والسعادة والشقاوة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، وإن كانت بقضاء الرب عز وجل، فهو يقضي ما يشاء بأسباب جعلها لمسبباتها مقتضية لها.

٦- ومنها توالد المعاصي، ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزه إليها أزّاً،

وتحرضه عليها، وتزعجه من فراشه ومجلسه إليها. ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل اللَّه عليه الشياطين فتؤزُّه إليها أزّاً. فالأول قوَّى جند الطاعة بالمدد، فصاروا من أكبر أعوانه، والثاني قوّى جند المعصية بالمدد فكانوا أعواناً عليه.

٧- ومنها إلفُ المعصية وذلك أن العاصي ينسلخ من قلبه استقباحها، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه. وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتُّك وتمام اللذة، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها، فيقول: يا فلان، عملت كذا وكذا، وهذا الضرب من الناس لا يعافون ويسد عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب كما قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «كُلُّ أمَّتِي مُعَافَى إلاّ المُجَاهِرُونَ وَإنَّ مِنَ الجِهَارِ أنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَيَقُولُ عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَاَ وكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يِكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ»(١).

٨- المعاصي مواريث الأمم السابقة، فاللوطية: ميراث عن قوم لوط، والتلاعب بالموازين ميراث قوم شعيب، والعلو في الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون والتكبُّر والتجبر ميراث قوم هود. فالعاصي لا بس ثياب بعض هذه الأمم، وهم أعداء الله.

٩- هوان العاصي على ربه وهوان المعاصي على المصرّين وقد ذكر البخاري في صحيحه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إنَّ المؤْمِنَ يَرَى

(١) رواه الشيخان في صحيحهما.

ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ وَقَعَ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا فَطَارَ».

١٠- شؤم المعصية يعم جميع الخلائق حتى يلعن العاصي كلُّ من لا ذنب له. يقول أبو هريرة رضي اللَّه عنه «إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم».

وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب، يقولون: منعنا القطر بذنوب بني آدم.

١١- المعاصي تورث الذل، قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ ؛ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾. وقال الحسن البصري رحمه الله: إنهم وإن طَقْطَقَتْ بهم البغال وهملجت بهم البراذين إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذُّلَّ إدمانُها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوءٍ ورهبانها؟

١٢- المعاصي توقع صاحبها تحت لعنة اللَّه ولعنة رسوله صلّى الله عليه وسلّم. فقد لعن الله في كتابه من أفسد في الأرض وقطع رحمه، وآذاه وآذى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات

المؤمنات بالفاحشة ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدى من سبيل المسلمين ولعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال، ولعن الراشي والمرتشي والرائش، ولعن الواشمة والمستوشمة والواصلة والموصولة و النامصة والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة ولعن آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه.

ولعن المحلِّل والمحلَّل له، ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه، ولعن من لعن والديه، ولعن من ذبح لغير الله، ولعن المصورين، ولعن من عمل قوم لوط، ولعن زوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج، ولعن من أفسد امرأة على زوجها، أو مملوكاً على سيده ولعن من أتى امرأة في دبرها، ولعن من انتسب إلى غير أبيه ولعن من سب الصحابة، ولعن أشياء أخرى غير هذه.

١٣- المعاصي سبب الخسف والزلازل والكوارث المختلفة.

١٤- المعاصي مجلبة للهلاك، فان الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت صاحبها، حيث أنها تستجلب المواد المؤذية وتوجب التخطيط المضاد للحمية، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح. فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض، وهو لا يستفرغها ولا يحتمي لها، كيف تكون صحته وبقاؤه؟ ولقد أحسن القائل:

جسمك بالحمية حَصَّنْتَهُ ... مخافة من ألم طاري

وكان أولى بك أن تخشى ... من المعاصي خشية الباري

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر، واستعمل الحمية باجتناب النواهي، واستفرغ التخطيط بالتوبة النصوح، لم يدع للخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً والله المستعان.

اللهمَّ اكفنا بحلالكَ عنْ حرامكَ واغننا بفضلك عمّنْ سواكَ. واشف أسقامناَ بشفاكَ وقوِّ ضعفنا برضاك واجعلْ خير أيامنا يوْم لقاك فإنا نشهدُ أنْ لا إله إلاَّ أنتَ ولا ربَّ لنا سواكَ... آمينْ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

(٨)
كلمة الحق

إن الذي يتذوق حلاوة الإيمان ويعيش في كنف الملك الديان يستصغر ما أوتيه ملوك الأرض من إنس وجان ويكره موادعتهم على الكفر والعصيان كما يكره أن يلقى في النيران. ولقد ضرب لنا الأبطال الثلاثة -الغلام والراهب وجليس الملك- أروع الأمثلة في الصبر والتحمل في سبيل النجاة بحياة قلوبهم وأرواحهم حتى ولو كان الثمن موت أجسادهم وبتر أعضائهم!.

وقول كلمة الحق يعتبر الفائدة الثامنة التي نجنيها خلال مطالعتنا للقصة التي يقصها علينا الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم حيث يقول متمماً: «...فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي.قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيئ بالغلام فقال له الملك:

أي بُنيَّ قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل . فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب؛ فجيئ بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى؛ فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه....».

إن العبد إذا أحب خالقه ومولاه هانت عليه محبة ماسواه وضحّى بكل ما يملك في سبيل رضاه ولم يأبه لتهديدات أرباب السلطة والطغاة، لا بل سعى لنيل الشهادة بكلمة عدل يقولها في وقت أُلجمت فيه الأفواه ورأى بأم عينيه صورة الجسد وقد وقع شقاه.

وهذا الملك ليس الأول الذي يدَّعي لنفسه الربوبية والألوهية على من تحته من الرعية، فلقد قال فرعون لأهل مصر ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ فأرسل الله إليه موسى عليه السلام ليبين له طريق العبودية الصحيح وليقول كلمة الحق أمام سلطانٍ جائرٍ وطاغوتٍ ماكر، يقتِّل الأطفال ويستحيي النساء ويستحوذ عليهم بتمتمة ساحر أو بدندنة فاجر!.

فلما وقف نبي الله موسى عليه السلام بين يديه سأله متبجحاً ﴿وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾ فأجابه موسى عليه السلام جواب الواثق بربه العزيز بمعيته ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾.

نعم أيُّها الملك إنَّ حدود مملكتك مصر وما حولها لا تساوي شيئاً بالنسبة إلى حجم الأرض كلها والأرض وما عليها والسموات وما بينهما كلها ملك لله وهذا هو ربي الذي أدعو إليه. وكان قول موسى عليه السلام حجة دامغة وبرهاناً ساطعاً لا يستطيع أحد ردّه، ومع ذلك قال فرعون لجلسائه وبطانته ألا تستمعون؟ وهذا على سبيل التهكم والسخرية ولصرف الأنظار عن الحقائق التي جاء بها موسى عليه السلام.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِين. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُون﴾[1].

(١) الآيتان: (٢٦-٢٧) سورة الشعراء.

وهذا الهجوم من موسى عليه السلام هو أشد مساساً بفرعون ودعواه بأنه إله، وأن الوراثة التي تقوم عليها الوهية فرعون دعوى باطلة لا أصل لها، فرب العالمين جميعاً هو الله جل في علاه، وكانت مقالة موسى عليه السلام القاصمة لفرعون وطعنة في الصميم لوضعه السياسي والديني مما دفعه لأن يطعن بشخصية النبي المرسل إليه واتهمه بالجنون إلا أن هذا الاتهام لم يغير من موقف الداعية الذي يعلم أن الطغاة لا يلجأون إلى هذا الأسلوب إلا في حالة الضعف والإفلاس المعنوي والفكري ولذلك يمضي في طريق دعوته ويأتي بالحجج التي تزلزل عروش المتجبرين ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

إن الشمس تسير في نظام كوني بديع لا تتقدم ولا تتأخر عن موعد طلوعها وأفولها لحظة واحدة منذ أن خلقها الله، فهل يستطيع أحد أن يدَّعي تصريفهما غير الله؟! إن الإله الذي هذه صفاته هو الإله الحق الذي يجب أن يعبد ويطاع في كل ما يشرع لعباده وكما أنه هو القادر على تصريف نظام الكون دون منازع وهو أعظم في الخلق من الناس، فمن باب أولى أن يكون قادراً على تصريف نظام حياة الإنسان دون منازع فمن ادّعى غير ذلك فيحشر مع فرعون وزمرته. والطغيان لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب، ولا يكره أحدأكما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية. ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور، عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب، فَينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عندما يسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا

(١) الأية، (٢٨) سورة الشعراء.

غَيْرِي لأَجعلنَّك مِنَ المَسْجُونِين﴾. فأراد فرعون أن يجعل حجاباً بين موسى وقومه خوفاً من انتقال العدوى كما يزعم هو ومن بعده من الطواغيت قديماً وحديثاً. ولكن موسى عليه السلام أراد أن يدمر قوائم البنيان الذي يرتكز عليه عرش فرعون، فتحدى السحرة وكشف عن معجزتين ماديتين كان قد آخرهما حتى بلغ التحدي من فرعون أقصاه ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِين. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِين﴾.

فأحس فرعون بقوة المعجزة فأراد أن يدفعها ليغطي على وقع المعجزة التي هزت كيانه، فقال هذا ساحر ولا يبطل سحره إلا ساحر مثله، فجمع السحرة ولكن هيهات أنى لهم الوقوف أمام موسى عليه السلام والذي جاء به ليس من ضرب السحر، إنما هي معجزة إلاهية تحول العصا الجماد إلى ثعبان ضخم يبتلع ما أمامه على وجه الحقيقة لا الخيال، فما كان منهم إلا السجود لرب العالمين اعترافاً برسالة موسى عليه السلام واستسلاماً لله رغم أنوف الطغاة المتجبرين.

لقد كان لإيمان السحرة بالله عز وجل وقعاً أشد من الصواعق على فرعون وملئه إذ هددت الأسطورة التي يقوم عليها عرش فرعون حيث أن كهنة المعابد وهم من السحرة كانوا يدعون أن السلالة المالكة تتصل بالآلهة، فلما آمن السحرة بطلت تلك الإدعاءات، فلم يبق لفرعون سند الا القوة والتي بدون عقيدة لا تحمي عرشاً ولا تقيم ملكاً.

لقد أصابت فرعون خيبة الأمل أمام الجموع المحتشدة من شعبه ولقي ما لم يكن في حسبانه وخصوصاً بعد أن أعلن التعبئة العامة وصرح أمام الملأ أنه

سيهزم موسى ويقمع ثورته ثم يفاجئ بانقلاب السحرة ضده وتركهم عبادته وهم الذين جاءوا لخدمته واستفتحوا بعزته!

فسارع إلى إلقاء التهم عليهم ثم أتبع ذلك بالتهديد والوعيد شأنه شأن سائر الطواغيت في القديم والجديد. ﴿لأُقَطِّعَنَّ أيدِيَكُمْ وأرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ ولأُصَلِّبَنَّكُمْ أجْمَعِينَ. قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وكذلك قال الراهب وجليس الملك للملك «لا ضَيْرَ إنّا إلى ربِّنا منقلبون» فأمر بإعدامها على الفور خوفاً على عرشه من التصدع وحرصاً على ملكه من الضياع.

وهكذا تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور وذاقت حلاوة الإيمان. إنها كلمة القلب الذي وجد الله فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان. القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل الطغيان. القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير. يقول الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم في الحديث الصحيح: «إنَّ منْ أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطانٍ جائرٍ»[1]. فمن استطاع أن يقول النصيحة أمام حكام مسلمين أو غير مسلمين بحيث يتحمل ويصبر على الأذى الذي يمكن أن يلقاه من جراء تلك النصيحة فلا بأس أن يقدم على ذلك وإن قُتِلَ فَقَتْلَتُهُ من أعظم الشهادة في سبيل الله، ومن لم يقدر على ذلك فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ولا يجوز لمؤمن أن يذل نفسه لقول النبي صلّى الله عليه وسلّم في

(١) رواه الترمذي.

الحديث الصحيح: «لا يَنْبَغِي لمؤْمِنٍ أنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ: يَتَعَرَّضُ لِلْبَلاءِ مِمَّا لا يُطِيقُ»[1] وإذلال النفس يمكن أن يحدث بطريقتين:

١- عدم الصبر على الشدائد المترتبة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حالة عدم التوافق.

٢- عدم الصبر على النعم التي يمكن أن يحصل عليها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في حالة ملازمة السلاطين.

وهذا الطريق شائك مما تسبب في اختلاف مواقف الدعاة فيه، ويمكن جعلهم في أربعة أصناف:

١- صنف أجازوا الاختلاط بالسلاطين مطلقاً.

٢- صنف أجازوا الاختلاط بهم ولكن من غير الذهاب إليهم مع وجوب الإنكار عليهم في منكراتهم.

٣- صنف أجازوا الاختلاط بهم وغض الطرف عن بعض منكراتهم تحصيلاً لمنفعة أو دفعاً لمضرة.

٤- صنف منعوا ذلك مطلقاً زهداً في دنياهم.

أرسل عبد الرحمن بن خالد إلى أبي حازم: أن ائتنا حتى نسائلك وتحدثنا. فقال أبو حازم: معاذ الله أدركت أهل العلم لا يحملون الدين إلى أهل الدنيا فلن أكون بأول من فعل ذلك فان كان لك حاجة فأبلغنا فتصدى له

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه.

عبد الرحمن وسأل منه وقال: لقد ازددت علينا بهذا كرامة»[1].

وقال جعفر الصادق: «الفقهاء أمناء الرسل ما لم يأتوا أبواب السلاطين»[2].

وقال سفيان الثوري رحمه اللّه: «إذا رأيت القارئ يلوذ بباب السلطان فاعلم أنه لص فإذا رأيته يلوذ بالأغنياء فاعلم أنه مرائي»[3].

وقال أيضاً: «إذا لم يكن لله في العبد حاجة نبذه اليهم يعني السلاطين».

وقال الفضيل بن عياض: «رجل لا يخالط هؤلاء ولا يزيد على المكتوبة أفضل عندنا من رجل يقوم الليل ويصوم النهار ويحج ويعتمر ويجاهد في سبيل الله ويخالطهم».

وقال أيضاً: لأن يدنوا الرجل من جيفة منتنة خير له من أن يدنو إلى هؤلاء».

ونقل عن أبي حازم أنه قال: «إن بني اسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء وكانت العلماء تفرُّ بدينها من الأمراء فلما رأى ذلك قومٌ من رذلة الناس تعلموا ذلك العلم وأتوا به إلى الأمراء فاستغنت به عن العلماء واجتمع القوم على المعصية فسقطوا وانتكسوا. ولو كان علماؤنا يصونون علمهم لم تزل الأمراء تهابهم»[4].

---

(١) الحلية (٣/٢٣٨).

(٢) مختصر صفوة الصفوة، ص١٦٤.

(٣) الحلية (٥/ ٣٨٧).

(٤) مختصر صفوة الصفوة. ص ١٩٦.

كانت تلك بعض أقول أهل الصلاح والزهد من السلف، وبالمقابل فإن بعض أهل العلم رأوا في مداخلة السلاطين الخير والمنفعة وهذه بعض أقوالهم.

يقول الإمام الشوكاني رحمه اللّه:

«ولا يخفى على ذي عقل أنه لو امتنع أهل العلم والفضل والدين عن مداخلة الملوك لتعطلت الشريعة المطهرة لعدم وجود من يقوم بها، وتبدلت تلك المملكة الإسلامية بالمملكة الجاهلية في الأحكام الشرعية من ديانة ومعاملة، وعم الجهل وطم، وخولفت أحكام الكتاب والسنة جهاراً، ولا سيما من الملك وخاصته وأتباعه، وحصل لهم الغرض الموافق لهم، وخبطوا في دين الإسلام كيف شاءوا، وخالفوه مخالفة ظاهرة واستبيحت الأموال واستحلت الفروج وعطلت المساجد والمدارس وانتهكت الحرم وذهبت شعائر الإسلام، ولا سيما الملوك الذين لا يفعلون ذلك إلا مخافة على ملكهم أن يسلب، وعلى دولتهم أن تذهب، وعلى أموالهم أن تنهب، وعلى حرمتهم أن تنتهك، وعلى عزهم أن يذل ووجدوا أعظم السبل إلى التخلص من أكثر أحكام الإسلام قائلين: جهلنا ولم نجد من يعلمنا، لم نلق من يبصرنا، فَرَّعَنَّا العارفون بالدين، وهرب منّا العلماء والعاملون، وفي الحقيقة أنهم يعدون ذلك فرصة انتهزوها، وشدة أطلقت عن أعناقهم وعزيمة إسلامية ذهبت عنهم...»أ.هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «يجب أن يعلم أن ولاية أكثر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها» وقال: «فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرَّب بها إلى اللَّه» وقال: «أن فساد الناس في الإمارة إنما هو من الحرص على الرئاسة والمال بالإمارة، وأن أهل الصلاح

من المسلمين هم الذين يريدون المال والإمارة لا من أجل العلو والفساد في الأرض، وإنما من أجل التقرب إلى الله سبحانه وتعالى». وقال أيضاً: «ولما غلبت على كثير من ولاة الأمور إرادة المال والشرف صاروا بمعزل عن حقيقة الإيمان في ولايتهم، رأى كثير من الناس أن الإمارة تنافي الإيمان وكمال الدين، ثم منهم من غَلَّبَ الدين وأعرض عما لا يتم الدين إلا به من ذلك» وقال خلاصة لما سبق «وهاتان السبيلان الفاسدتان سبيل من انتسب الى الدين ولم يكمله بما يحتاج إليه من السلطان والجهاد والمال وسبيل من أقبل على السلطان والمال والحرب، ولم يقصد بذلك إقامة الدين هما سبيل المغضوب عليهم والضالين، الأولى للضالين النصارى، والثانية للمغضوب عليهم اليهود».أ.هـ.

والذي يمعن النظر في أقوال الأئمة لا يجد كبير فرق بينها فالإمام الشوكاني رحمه الله يرى أن العالِم المسلم إذا أمكنه جلب منفعة للأمة أو دفع مفسدة عنها أو تخفيف ظلم واقع عليها من خلال مداخلة السلاطين فلا بأس في ذلك مع أخلاص النية لله تعالى، وهو يوافق شيخ الإسلام ابن تيمية فيما نقلنا من كلامه، وهذا السبيل هو الراجح من أقوال أهل العلم سلفاً وخلفاً فيما أدين الله به. وذلك لأن تخلف الصلحاء عن مداخلة السلاطين بالشروط التي بينها أهل العلم، يجعل المكان شاغراً ومهيئاً لشغله من قبل الخبثاء الذين يزينون سوء العمل للرؤساء بالمدح الكاذب وكثرة الهراء، فتعيش الأمة في تعاسة وشقاء ويمنع عنها القطر من السماء وتصبح أكلة جاهزة يتداعى عليها الأعداء، يتقاسمون أرضها ويسيطرون على خيراتها ويحكمون عليها بالفناء!

والكلام في هذا الموضوع يحتاج إلى إيضاح حتى لا يقع المسلم في

المحرم ويحسب أنه مباح، وأهم شرط في المداخلة أن لا يكون السلطان قد أظهر الكفر البواح، واهتم بنشر الرذيلة والفساد وقمع الفضيلة والصلاح، فإن كان كذلك فالعزلة هي سبيل النجاة والفلاح.

ومن شروط المداخلة أيضاً أن لا يعينه على ظلم ولا يقره على عمل يخالف الشريعة، ولا يصدقه فيما يعلم أنه كذب، وخصوصاً في السياسة التي يتحرى أصحابها الزور والبهتان، وفي ذلك يقول النبي صلّى الله عليه وسلّم «سَيَلِي أُمَرَاءُ ظَلَمَةٌ خَوَنَةٌ فَجَرَةٌ، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذْبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلاَ يَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَهُو مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ»[1].

فمداخلة السلطان ينبغي أن تنشأ على قاعدة التوأمية بمعنى أن العالم المسلم يكون مسئولاً عن السلطة التشريعية، والحاكم المسلم يكون مسئولاً عن السلطة التنفيذية، لأن كلاً منهما يعتبر من ولاة أمر المسلمين، وإذا أصيبت هذه القاعدة بخلل نتيجة لتعدي أحدهما على صلاحيات توأمه، فان حياة المجتمع تتعرض للخطر والتصدع بمقدار الهوة التي بين التوأمين.

يقول الحبيب المصطفى والنبي المجتبى والذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى صلوات ربي وسلامه عليه: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالأَمِيرِ خَيْراً جَعَلَ لَهُ

(١) الحديث حسن. وقد ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٢٥) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح. قلت: والحديث روي عن كعب بن عجرة وعن جابر بن عبدالله وعن النعمان بن بشير بروايات مختلفة، وأقل أحواله أن يكون حسناً في الشواهد.

وَزِيـــرَ صِدْقٍ، إنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وإنْ ذَكَرَ أعَانَهُ، وَإذَا أرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ، إنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ، وَإنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ»[1].

ومن النماذج الطيبة التي تتمثل فيها التوأمية في أحسن أوجهها، تلك الرسالة الخطية التي بعثها الإمام الحسن البصري إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمهما الله وأسكنهما فسيح جنانه، يصف له فيها الإمام العادل، وجاء في الرسالة:

إعلمْ يا أميرَ المؤمنينَ، أنَّ اللَّهَ جَعَلَ الإمامَ العادلَ قوامَ كلِّ مائلٍ، وقصدَ كلِّ جائرٍ، وصلاحَ كلِّ فاسدٍ، وقوةَ كلِّ ضعيفٍ، وَنصفَ كلِّ مظلومٍ، ومفزعَ كلِّ ملهوفٍ.

والإمامُ العدلُ، يا أميرَ المؤمنينَ، كالراعي الشفيقِ علَى إبله، الرفيقِ بها، الذي يَرْتَادُ لهاَ أطيبَ المراعِي، وَيَحْمِيهَا مِنَ السبَّاعِ، ويكنُّهاَ منْ أذىَ الحرِّ والقرِّ.

والإمامُ العدلُ، يا أميرَ المؤمنينَ، كالأبِ الحاني علَى ولده، يسعَى لهمْ صِغاراً، ويعلمهمْ كِباراً، يكتسبُ لهمْ فِي حياتِه، ويدَّخرُ لهمْ بعدَ مماتِه.

والإمامُ العدلُ، يا أميرَ المؤمنينَ، كالأمِّ الشَّفيقةِ البرّةِ الرَّفيقةِ بوَلَدِهَا، حملتهُ كُرْهاً، ووضعتهُ كُرهاً، وربتهُ طفلاً، تسهرُ بسَهَرِه وتسكنُ بسكونه، تُرْضِعُهُ تارةً وتُفْطِمُهُ أخْرَى، وتفرحُ بعفايتِه، وتغتمُّ بشكايتِه.

والإمامُ العدلُ، يا أميرَ المؤمنينَ، وصيُّ اليتامَى، وخازنُ المساكينِ، يُرَبِّي صَغِيرَهُمْ، ويمونُ كَبِيرَهُمْ.[2]

---

(١) رواه أبو داود والنسائي والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها، وصححه شيخنا الألباني في صحيح الجامع (٢٩٩).

(٢) يعطيه حاجته من المؤونة ومستلزمات الحياة.

والإمامُ العدلُ، يا أميرَ المؤمنينَ، كالقلبِ بينَ الجوارحِ، تصلحُ الجوارحُ بصلاحه، وتفسدُ بفساده.

والإمامُ العدلُ، يا أميرَ المؤمنينَ، هوَ القائمُ بينَ اللَّه وبينَ عباده، يسمعُ كلامَ اللَّهِ ويُسْمِعُهُمْ، وينظرُ إلَى اللَّهِ ويُرِيهِمْ، وينقادُ إلَى اللَّهِ ويَقُودُهُمْ.

واذكرْ يا أميرَ المؤمنينَ، الموتَ وما بعدَهُ، وقلَّة أشياعكَ عندهُ وأنصارِكَ عليه، فتزوَّدْ لهُ وَلِمَا بَعْدَهُ مِنَ الفزعِ الأكبرِ. واذكُرْ يا أميرَ المؤمنينَ إذَا بُعثرَ مَا فِي القبورِ، وحصِّلَ مَا فِي الصُّدورِ فالأسرارُ ظاهرةٌ، والكتابُ لا يغادرُ صغيرةً وَلاَ كبيرةً إلاَّ أحْصَاها.

فالآن، يا أميرَ المؤمنينَ، وأنتَ في مُهْلٍ قبلَ حلولِ الأجلِ، وانقطاعِ الأملِ، لا تحكمُ يا أميرَ المؤمنينَ في عبادِ اللَّه بحكمِ الجَاهلينَ، ولا تسلكْ بهمْ سبيلَ الظالمينَ، ولا تسلِّط المُسْتَكْبرينَ عَلَى المُسْتَضْعَفينَ.

إنِّي، يا أميرَ المؤمنينَ، وإنْ لمْ أبلغْ بعظتي ما بلغهُ أولوُ النُّهَى مِنْ قَبْلِي، فلمْ آلكَ شفقةً ونصحاً، فَأنْزِلْ كتَابِي إليكَ كَمُدَاوي حَبِيبَهُ، يسقيه الأدويةَ الكريهةَ لمَا يرجُو لهُ في ذلكَ مِنَ العافيةِ والصحةِ، والسلامُ عليكَ يا أميرَ المؤمنينَ، ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُهُ»[1].

ونموذج آخر في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما جاء في نفح الطيب[2] أن الإمام أبا بكر الطرطوشي وعظ الأفضل ابن أمير الجيوش بمصر وقال له: إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار اليك بموت من كان

(١) العقد الفريد (١/٣٤).

(٢) (٢/٨٧) وانظر سير أعلام النبلاء (١٩/٤٩٢). والبداية والنهاية لابن كثير (٢/١٨٨).

قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما حولك من هذه الأمة، فإن الله عز وجل سائلك عن النقير والقطمير والفتيل!

واعلم أن الله عز وجل آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحذافيرها، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال عزَّ من قائل: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

فما عدّ ذلك نعمة كما عددتموها! ولا حسبها كرامة كما حسبتموها! بل خاف أن يكون استدراجاً من الله عز وجل، فقال: «هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[2]. فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ثم أنشده مشيراً إلى النصراني الذي كان جالساً بجانبه:

يا ذا الذي طاعته قربة ... وحقه مفترض واجب

إن الذي شُرِّفت من أجله ... يزعم هذا أنه كاذب

فلما سمع الأفضل ذلك أقام النصراني من موضعه».

أما إذا كانت مداخلة السلاطين لا تؤتي أكلها الذي أجيزت لأجله، وأنس صاحبها بالمنكر ورضي بالباطل وسكت عن الإعوجاج وفرح بالمنصب المرموق، فمثل هذا عناهم عبدالله ابن المبارك في قوله:

يا جاعل العلم له بازياً ... يصطاد به أموال السلاطين

(١) سورة ص، الآية (٣٩).

(٢) سورة النمل، الآية (٤٠).

احتلت للدنيا ولذاتها ... بحيلة تذهب بالدِّين
فصرت مجنوناً بعدما ... كنت دواء للمجانين
أين رواياتك فيما مضى ... عن ابن عون وابن سيرين
ودرسك العلم بآثاره ... وتركك أبواب السلاطين
تقول أكرهت فما حيلتي ... زل حمار الشيخ بالطين
لا تبتغي الدنيا بدين كما ... يفعلُ ضُلاّلُ الرهابين

ولا يشك من أوتي عقلاً راجحاً وعلماً نافعاً ودراية سلفية وبصيرة نورانية أن من يشارك في المجالس التشريعية في ظل أنظمة جاهلية تستحل الحرام وتشجعه وتحرم الحلال وتمنعه، وتمجد الزنديق وترفعه وتحقر التقي وتخفضه، إن الذي يشارك في مثل هذه المجالس يقع في ضلال الأحبار والرهابين! وإنني لأسأل أولئك المنخدعين بزخارف الأقاويل هل هناك كبير فرق بين المجالس التشريعية (البرلمان) في البلدان الإسلامية ومثيلاتها في البلدان الإلحادية والصليبية؟ إن الذي يمعن النظر يجد أنها تختلف في الهوية وتتفق جميعها في وجهتها العلمانية، فشرائعها بشرية أرضية وليست إلهية سماوية، بل تجعل أسس التعاون فيما بينها مبنيّةٌ على الإثم والعدوان ومحاربة الأصولية والشرعة المحمدية!.

يريدون من الأمة أن تنسلخ عن أصول دينها كما فعل أتباع اليهودية والنصرانية!. يريدون أن يفصلوا الدين عن الدولة والشؤون الحياتية! يريدون أمة هامشية لا هاشمية في الشرعة والمنهجية حتى يهمش دورها في المحافل الدولية!

أجل أيها الإخوة وهذا الذي يخطط له أعداء الإسلام ضد الأمة

المحمدية، فبعد انتهاء الحرب الباردة بين المعسكرات الشرقية والغربية، اتفقوا جميعاً وأعلنوها حرباً ساخنة ضد الصحوة الإسلامية وترى النظام العالمي الجديد قد جند الصهيونية لسحق المسلمين في فلسطين والديار المقدسية وجند الصليبية لسحق الإسلام في الفلبين وفي البوسنة والهرسك وفي بعض البلدان الإفريقية وجند البوذية لسحق الإسلام في كشمير وبورما وفي سائر البلاد الهندية، وجند الباطنية لإضعاف المسلمين وإشعال فتيل الفتنة في جبهات داخلية، وهدد كل نظام عربي وإسلامي بفرض عقوبات اقتصادية ضده إذا حاول أن يساعد الجماعات الإسلامية أو أن يفكر يوماً بتطبيق الشريعة الإسلامية...!

ولقد قال الحبيب المصطفى والذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى صلّى الله عليه وسلّم «يُوشِكُ أنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الأمُمُ مِنْ كلِّ أفقٍ، كمَا تَدَاعُى الأكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا، قيلَ: يا رَسولَ اللَّه فَمنْ قلَّة يَومئذ؟ قالَ لاَ، وَلَكنَّكُمْ غُثاءٌ كَغُثَاء السَّيلِ، يُجْعَلُ الوَهَنُ فِي قُلوبِكمْ، وَيُنْزَعُ الرُّعْبُ مِنْ قُلوبِ عَدوِّكمْ، لِحُبِّكمْ الدُّنْيا وَكَرَاهِيَتِكُمْ الموتَ»[1].

فإن كانت لي كلمة حق أقولها في هذا المقام، فإني أجعلها موجهة إلى الدعاة إلى الله وإلى الحكام، أما الدعاة إلى الله فأذكّرهم بقول الله عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2] وقول النبي صلّى الله عليه وسلّم «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وإنَّما أنَا قَاسِمٌ،

(١) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد وأبو داود.
(٢) سورة النحل، الآية (١٢٥).

واللَّهُ يُعْطِي، ولنْ تزَالَ هذه الأمَّةُ قـائِمةٌ على أمـرِ اللَّهِ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حتَّى يَأتِيَ أمرُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ»[1].

فالخيـر كله في العلم والفـقه لأن الداعية الذي يتسلح بالعلم لا يتـخبط العشواء في دعوته ويبني ولا يهدم ويُصلح ولا يُفسد ويُيسرٌ ولا يُعسرٌ ويكون عوناً لأخيه على الشيطان لا عوناً للشيطان على أخيه فولي الأمر بشر يخطئ و يصيـب فإن أخطأ فـيقوّم بالـتي هي أحسن مـا لم يعلن الكفـر البواح فـإن فعل ذلك جاز قتاله والخروج عليه.

أمـا ولاة أمـر المسلمـين فأذكّر بـقول الـله عـز وجل: ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الـلَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2] وقوله تعـالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ الـلَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾[3] وقول النبي صلّى الله عليـه وسلّم وسلّم «مَنْ وَلِيَ مِنْ أمـورِ المسلمينَ شَيئاً، فـاحْتَجَبَ دونَ خلَّتهم، وحَاجَتِهِم، وفَقْرِهِمْ، وفَاقَتِهـمْ، احْتَجَبَ اللَّهُ عـنهُ يـومَ الـقيـامـة دونَ خلَّتـهُ، وحاجَتِه، وفاقَتِه، وفـقره»[4] وقوله «ما مِنْ عبـدٍ يَسْتَرْعيه اللَّهُ رعيَّةً، يموتُ يومَ يمـوتُ؛ وهوَ غاشٌ لرَعِيَّتِهِ، إلاَّ حـرَّمَ اللَّهُ عليـه الجنَّةَ»[5]. وقـوله «يَقْبِضُ الـلَّهُ الأرضَ يومَ القـيامةِ، ويَطْوِي السَّمـوات بِيَمينه، ثُمَّ يقـولُ: أنا الملكُ، أيْنَ ملوكُ الأرضِ؟»[6] وقـولـه في الحـديث الـطويـل: «...وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ

(١) رواه الإمام أحمد والشيخان.
(٢) سورة المائدة الآية (٥٠).
(٣) سورة الزمر الآيتان (٣٦-٣٧).
(٤) حديث صحيح رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم.
(٥) رواه الشيخان.
(٦) رواه الشيخان.

بَرَّهَا وَفَاجِرَها، ولا يَتَحَاشَا مِنْ مُؤمنهَا، ولا يَفي لذي عُهْدَةٍ عَهْدَهُ، فَليسَ منِّي، ولستُ منْهُ»[1]. وقوله: «اللَّهمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أمْرِ أمَّتي شَيْئاً فَشَقَّ عليهمْ فاشْقُقْ عليهِ وَمَنْ وَلِي مِنْ أمْرِ أمَّتي شَيئاً فَرفَقَ بِهِم فارْفُقْ بِهِ»[2].

وهذا القول عام ولا يخص أحداً بعينه فالحاكم يجب عليه أن يرفق برعيته، يحكمها بشريعة الإسلام ويعدل بين الأنام ويقرب اليه أهل التقى والصلاح يسترشد بنصحهم ويجعلهم في أحسن مقام، ويقصي عن ملكه المجرمين اللئام، فيسلم بدينه ودنياه وآخرته ويحظى بمعية الملك القدوس السلام... وبالمقابل فإنه يجب على الرعية أن ترفق بولي أمرها تطيعه ولا تعصيه وتدعو له ولا تدعو عليه، لأن في صلاحه صلاح البلاد والعباد وفي فساده خراب البلاد والعباد.

اللهم أصلح أئمتنا وولاة أمرنا واجعل ولايتنا فيمن خافك واتقاك واتبع هداك يا رب العالمين. آمين.

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي.

(٢) رواه مسلم

(٩)
جند اللّه

لقد استقرت جذور العقيدة في النفوس وقام بناء الإيمان في القلوب، على الرغم من جميع العوائق، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين. ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار، وذهبت سطوتهم ودولتهم وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل، تسيطر على قلوب الناس وعقولهم، وتكيف تصوراتهم وأفهامهم.

ولقد كشف الله لنا عن طريق الهدى وطريق الضلال، وحدد لنا نهجاً نسلكه، فنهتدي ونسعد ونفوز وبيَّن لنا نهوجاً ننحرف إليها فنضل ونشقى ونخسر، ولا نعلم مشيئة الله المغيبة بنا، ولكننا نعلم ماذا يطلب الله منا لنستحق فضله الذي كتبه على نفسه ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[1].

وهذه هي الفائدة التاسعة التي نستفيدها من خلال مطالعتنا للقصة التي يقصها علينا نبي الهدى صلّى اللّه عليه وسلّم حيث يقول متمماً «... ثم جيئ بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع

---

(١) سورة غافر الأية (٥١).

عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل بأصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور[1]، وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل بأصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى...».

قد يهزم جنود الله في معركة من المعارك، ويقتل بعضهم على رؤوس الخلائق، ويستضعف آخرون وتسد في وجوههم المسالك، وتدور عليهم الدائرة فيقعون في فتن حوالك، ويقسو عليهم الابتلاء، لأن الله يعدهم للنصر في معركة أكبر. ولأن الله يهيئ الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع، وفي خط أطول، وفي أثر أدوم.

إنَّ وعد الله لعباده المؤمنين بالنصر هو سنة من سنن الله الكونية، سنة ماضية كما تمضي الكواكب و النجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة حينما ينزل عليها الماء، ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء، وقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة. ولكنها لا تخلف أبداً ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين.

لقد قتل الراهب وجليس الملك على مرأى من الغلام، فلم يصده ذلك

(١) سفينة أو قارب.

عن المضي قدماً في طريق الدعوة المحاط بالمهالك، وأراد الملك أن يتخلص من الغلام بطريقة تكون عبرة لمن بعده. ويقاد الغلام مكبلاً بالسلاسل خشية الفرار تقوده عصبة من الرجال الأقوياء إلى جبل شاهق، ثم يطلبون منه الرجوع عن دينه وإلا قذفوه من أعلى الجبل، فيرفض الغلام مطلبهم الساذج لأنه متيقن على أن الله أقوى من الملك وجنده وحاشيته فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فاهتز الجبل على الفور مستجيباً للأمر الإلهي كن فيكون، ويسقط جنود الملك من فوق الجبل وينجو الغلام. ثم يحاول الملك إهلاكه بطريقة أخرى، فيؤخذ الغلام في سفينة إلى وسط البحر، ويدعو الغلام ربه وإلهه ومليكه فتنكفئ السفينة فيغرق الجند وينجو الغلام.

يا لله! يا لروعة الإيمان إذ يشرق في الضمائر، وإذ يفيض على الأرواح، وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس، وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين، وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد....

وهذا الموقف الإيماني الرائع يتكرر في عالم البشر مع اختلاف الأزمنة والأمكنة، فلقد قال السحرة لفرعون بعد إيمانهم ﴿اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

فلما سمع فرعون ما قاله السحرة، أخذته العزة بالإثم ونفذ وعيده وتهديده فقتل الرجال واستحيا النساء، ولم يكن أمام موسى وقومه إلا الصبر على الإبتلاء وطلب المعونة من السماء!.

وتتنزل المعونة الإلهية لنصرة الفئة المؤمنة الصابرة والتي تحملت عنف الجبابرة، لأن العنف لا يخرسُ أصحابه إلا عنفٌ مثله أو يزيد ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

جدب للأرض الخصبة وقلة في المحاصيل أكبر تحد للإله الفرعوني الذي يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾. ومع ذلك كله وبالرغم من قساوة الحال إلا أن هذا العقاب الأولي لم يكف أذى الظالمين عن عباد الله المستضعفين فكان لزاماً أن تبدأ المرحلة الثانية من العقاب لتكون وسيلة رادعةً للطغاة على مر الأزمان. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالجَرَادَ وَالقُمَّلَ وَالضَفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾[1].

روى الطبري في تفسيره عن سعيد بن جبير قال: «لما أتى موسى فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل، فأبى عليه، فأرسل الله عليهم الطوفان -وهو المطر- فصب عليهم منه شيئاً، فخافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني اسرائيل! فدعا ربه، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني اسرائيل؛ فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ. فقالوا: هذا ما كنا نتمنى! فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقى الزرع. فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك، ونرسل معك بني اسرائيل! فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا

(١) سورة الأعراف الآية (١٣٣).

معه بني اسرائيل! فداسوا وأحرزوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا فأرسل الله عليهم القُمَّل -وهو السوس الذي يخرج منه- فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة. فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القُمّلَ، فنؤمن لك ونرسل معك بني اسرائيل! فدعا ربه فكشف عنهم؛ فأبوا أن يرسلوا معه بني اسرائيل. فبينا هو جالس عند فرعون، إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا! فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟! فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهمُّ أن يتكلم فتثب الضفادع في فيه. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمن لك ونرسل معك بني اسرائيل! فكشف عنهم فلم يؤمنوا. فأرسل الله عليهم الدم، فكانوا كلمَّا استقوا من الأنهار والآبار، أو ما كان في أوعيتهم، وجدوه دماً عبيطاً. فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب! فقال: إنه قد سحركم! فقالوا: من أين سحرنا، ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً؟ فأتوه فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني اسرائيل! فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني اسرائيل».

لقد أجابتهم البيئة من حولهم بأنها من جند الله المسخرة لنصرة عباد الله في أي وقت شاء الله ولتدمغ بالحق باطل أعداء الله مهما أوتوا من قوة وجند وعتاد فإن مصيرهم إلى الدمار والكساد!.

إلا أن تأثير هذه الآيات سرعان ما يزول بمجرد زوال العقاب وذلك بسبب ما أصاب القلوب من قساوة وما تغشاها من ران فهي لا تنتفع بالتذكرة ولا يردها عن جموحها برهان. وكان القوم إذا نزلت بهم مصيبة لجأوا إلى الله

عن طريق موسى عليه السلام فإذا كشف الله عنهم العذاب رجعوا إلى كفرهم وطاعة طواغيتهم، واستمروا على ذلك حتى جاءت ساعة المفاصلة، فأمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين بالهجرة وترك ديار الظالمين والجاحدين...

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾[1].

ولكن أهل الكفر والطغيان لا تخمد نار حقدهم حتى يقضوا على الحق وأهله حيثما حلوا وأينما رحلوا. لقد أظهر أهل مكة العداوة والبغضاء للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ولدعوته في مكة فلما هاجر لحقوا به وأرادوا إجهاض دعوة الإسلام قبل أن تستقر في مكان يكون لها منطلق قوة يهاجم منه باطلهم! فردّ اللّه كيدهم في نحورهم وكتب عليهم المذلة والخذلان وصارت للإسلام دولة رغم أنوف أهل الطغيان.

ويجمع فرعون الجند، وينادي الإله المزعوم! في قومه أن هلمّوا إلى التعبئة العامة في جميع أنحاء الوطن للدفاع عنه من أعداء الوطنية والوثنية! واعلموا أيها الناس أن الخصم قليل العدد ضعيف القوة ليس لديهم مال ولا متاع ولا سلاح ونحن الأكثر عدداً وعدة وجنداً وعتاداً وسوف نسحقهم سحقاً....

لقد أسرى موسى بعباد الله، بوحي من الله وتدبير. فأتبعهم جنود

(١) سورة الشعراء الآيات(٥٢-٥٦).

فرعون في الصباح بمكر من فرعون وبطر. ثم ها هو ذا المشهد يقترب من نهايته. والمعركة تصل إلى ذروتها... إن موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفينة ولاهم يملكون خوضه وما هم بمسلحين. وقد قاربهم فرعون بجنوده شاكي السلاح يطلبونهم ولا يرحمون! وقالت دلائل الحال كلها: أن لا مفر والبحر أمامهم والعدو خلفهم: «قال أصحاب موسى! إنا لمدركون» وبلغ الكرب مداه، وإن هي إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين!.

إلا أن العبد المؤمن الواثق بربه والمتيقن على معيّته يقول: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

كلا في شدة وتوكيد. كلا لن نكون مدركين. كلا لن نكون هالكين. كلا لن نكون مفتونين. كلا لن نكون ضائعين وفي هذه اللحظات الحرجة ينزل الأمر الإلهي إلى موسى ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾.

لقد كانت العصا من جند الله المجندة لنصرة عباد الله في معركة التحدي أمام السحرة وهاهي تشترك في معركة عرض القوى ويتحول الماء السائل إلى جبل صلب شامخ على جانبي الطريق الذي مهد لعبور موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين.

ووقف فرعون مع جنوده مبغوتاً مشدوهاً بذلك المشهد الخارق، وذلك الحادث العجيب. ولا بد أن يكون قد وقف مبهوتاً فأطال الوقوف -وهو يرى موسى وقومه يعبرون الخضم في طريق مكشوف- قبل أن يأمر جنوده بالاقتحام وراءهم في ذلك الطريق العجيب.

لقد كانت هذه المعجزة الإلهية كافية لإيقاف الظالم عن ظلمه وتنحّي فرعون عن مطاردة المؤمنين إلا أن الغرور والعنجهية والغطرسة قادمة إلى مصيره المحتوم. فبينما ينجي الله موسى والذين معه إلى الشاطئ الآخر، إذ يرجع الماء إلى حالته الأصلية بأمر الله فيغرق فرعون ومن معه أجمعين ليكون مصيرهم عبرة للمعتبرين وتنبيهاً للغافلين...!

وعندما هاجر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، لحق به سراقة بن مالك ليقبض عليه طمعاً في عطية دنيوية فلما أدركه أشار النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إليه بيده فغاصت أرجل الفرس الذي يمتطيه في الأرض، فاستنجد قائلاً: يا محمد خلصني وأتركك وشأنك، فدعا الله ففلت ثم عاد ولحق به فدافعت الأرض عنه صلّى اللّه عليه وسلّم وحالت بينه وبين سراقة للمرة الثانية والثالثة ثم قال له النبي صلّى اللّه عليه وسلّم: «ارجع ولك سواري كسرى». فرجع عنهما ولم يخبر أحداً بخبرهما (أي النبي صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه». ولم ينل سراقة الجائزة إلا في عهد عمر الفاروق رضي الله عنه بعد أن فتحت بلاد فارس.

وعاصم بن ثابت الأقلح رضي الله عنه عندما قتله رماة بني لحيان غدراً وأرادت قريش أن تأخذ شيئاً من جسده لأنه كان قد قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من ذكور النحل أو الزنابير فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء.

وإذا كان الجبل قد اهتز ليرفض الكافر من على ذروته ويحتضن المؤمن حتى لا يصاب بأذى، فإن الجماد والطير اشتركا في مؤانسة نبي الله داود عليه

السلام، وسبح كلٌ بحمد ربه بالكيفية التي أرادها الله بحيث يترنم كلٌ بصوت الآخر فيشعر بالأنس والموافقة التجانسية.

والريح من جند الله المسخرة للإنسان، فإن كان مؤمناً أعانته ونصرته، وإن كان كافراً أو عاصياً قصمته ودمرته. فنبي الله سليمان عليه السلام سخرت له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب أي تنقله إلى أي مكان شاء وفي أي وقت شاء، فلا يحتاج إلى مركز للأرصاد الجوية ولا إلى تصاريح للطيران في مجالات الجو الدولية ولا يعتريه الخوف من تقلبات الطقس ولا من العواصف الثلجية لأن سرعة الريح تتوافق مع ما يريد وبالقدر الذي يريد. أما في ميدان المعركة بين الحق والباطل فقد كانت الريح تلعب دوراً بارزاً في مؤازرة المسلمين وإضعاف الكافرين. ففي غزوة الخندق اجتمعت الأحزاب والملل الكافرة على حرب رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم ومن معه من المؤمنين، حشدت الجيوش حول المدينة والمسلمون يومئذٍ لا يتجاوز عددهم الثلاثة آلاف، بينما تجاوز عدد الكفار العشرة آلاف. وأقام رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة لتكاتف عدوهم عليهم وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى بلغت القلوب الحناجر عندئذٍ صدر الأمر الإلهي للريح أن دافعي عن عبادي المؤمنين، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح خيامهم حتى قال أبو سفيان -وكان يومئذٍ قائد الأحزاب- يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلكت الكراع[1] وأخلفتنا بنو قريظة، ولقينا من شدة الريح ما ترون. فلا تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء... فارتحلوا فاني مرتحل... ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ

(١) يعني الخيل والجمال.

اللَّهِ عَلَيْكُم إِذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وجنوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾[1].

ولما أراد ملك الحبشة أن يغزو الكعبة في العام الذي ولد فيه الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وكان من قبل قد فشل في صرف العرب عن بيتهم المقدس-البيت الحرام- فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام صاحبي هذا البيت وكان هذا موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر بالأنساب وكانت معتقداتهم الوثنية أفضل في نظرهم من معتقدات أهل الكتاب من حولهم، وهم يرون ما فيها من خلل واضطراب!.

فلما فشل في المعركة الثقافية والإعلامية تحول إلى منطق القوة وهذه سنة الطغاة على مر الأزمان فقاد جيشاً جراراً تصاحبه الفيلة، وفي مقدمتها فيل عظيم ذو شهرةٍ خاصةٍ عندهم. فتسامع العرب به وبقصده، وعز عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم، فوقف بعضهم في طريقه -مع ضعفهم وقلة حيلتهم- فاستطاع أن يتغلب عليهم ويمضي حتى وصل على أبواب مكة، فخرج إليه عبد المطلب بن هاشم وكان من أسياد قريش، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمه وأكرمه وجلس بجانبه ثم سأله عن حاجته، فقال عبد المطلب: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال له أبرهة: أعجبتني حين رأيتك وزهدت فيك حين كلمتني! أتكلمني في مائتي بعير وتترك دينك ودين آبائك؟!

فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً يحميه قال: ما

(١) سورة الأحزاب، الآية (٩).

كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك!

فرجع عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في شعف الجبال، ثم قام إلى باب الكعبة ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه. وكان مما قالوه:

اللهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك.

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك.

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمرٌ ما بدا لك!

لقد كان عبد المطلب بن هاشم في فعلته أفضل من كثير من سادات العرب اليوم حيث أنه مع وثنيته لم يشارك الطاغية في تدمير بنيان البيت الحرام ولم يرتض أن يكون حارساً على كيان الصليبية الحاقدة أو الصهيونية الماكرة....

لقد حاول أن يدافع عن البيت وهو من الحجارة لأنه -في نظرهم- هو سبب الشرف والعظمة التي يحظون بها عند قبائل العرب. أما أسياد العرب اليوم فقد تخلوا عن الإسلام وأهله في سبيل الحفاظ على كراسي الملك والعروش الزائفة ولا يجدون حرجاً في مشاركة الصليبيين والصهاينة والملحدين في قتل وتعذيب الأشاوس من المسلمين، ويجعلون الجيوش وقوات الأمن جاهزة للانقضاض على كل من يدعو إلى تحكيم الشريعة والرجوع إلى أصالة الدين!....

وإذا كان السيد الهاشمي -عبد المطلب- قد التجأ إلى باب الكعبة ودعا

الله أن يحميها، فإن أسياد العرب اليوم يلجأون إلى باب البيت الأبيض -جلله الله بالسواد- ويدعون سيد البيت أن يحفظ عليهم نعمة العلف والتي بها تسخر لهم شعوبهم ويسألونه أن يحمي عروشهم مقابل بقائهم عبيداً له طائعين... فشتان بين الثرى والثريا.

وتوجه أبرهة بجيشه الضخم نحو الكعبة، فبرك الفيل دون مكة لا يدخلها، وجهدوا في حمله على اقتحامها فلم يفلحوا. وفي هذا قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في الحديث الذي يرويه الشيخان: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسول الله والمؤمنين، ألا فإنها لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي...»

ولم تنته المعركة عند هذا الحد، فأرسل الله تعالى عليهم جنوده التي لا تغلب، جماعات من الطير الصغيرة الحجم مقارنة مع عظم حجم الفيلة تحصبهم بحجارة من سجيل فتركتهم كعصفٍ مأكول أي كأوراق الشجر الجافة الممزقة.

إن اللّه لم يقدِّر لأهل الكتاب أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة، حتى والشرك يدنسه، والمشركون هم سدنته، ليبقي هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلطين، مصوناً من كيد الكائدين، وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة، لا يهيمن عليها سلطان، ولا يطغي فيها طاغية، ولا يهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد، ويقود البشرية ولا يقاد، وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام!

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن، إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية، ولا تنثني أو تهدأ في التمهيد الخفي اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة، فالله الذي حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون، سيحفظه، ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين!

ومن جهة أخرى فإنه لم يكن للعرب دور في الأرض، بل لم يكن لهم كيان قبل الإسلام، كانوا في اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة، وكانت دولتهم حين تقوم هناك أحياناً تقوم تحت حماية الفرس، وفي الشمال كانت الشام تحت حكم الروم إما مباشرة وإما بقيام حكومة عربية تحت حماية الرومان... ولم ينج إلا قلب الجزيرة من تحكم الأجانب فيه، ولكنه ظل في حالة بداوة أو في حالة تفكك لا تجعل منه قوة حقيقية في ميدان القوى العالمية، وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين سنة، ولكن لم تكن هذه القبائل متفرقة ولا مجتمعة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة، وما حدث في عام الفيل كان مقياساً لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبي.

وتحت راية الإسلام ولأول مرة في تاريخ العرب أصبح لهم دورٌ عالمي يؤدونه، وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب، قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العروش، وتتولى قيادة البشرية، بعد أن تزيح القيادات الجاهلية المزيفة الضالة ... ولكن الذي هيئ للعرب هذا لأول مرة في تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب! نسوا نعرة الجنس، وعصبية العنصر، وذكروا أنهم مسلمون، ومسلمون فقط، ورفعوا راية الإسلام، وراية الإسلام وحدها. وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلى البشرية رحمة وبراً بها، ولم يحملوا قومية ولا

عنصرية ولا عصبية. حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس بها لا مذهباً أرضياً يخضعون الناس لسلطانه وخرجوا من أرضهم جهاداً في سبيل الله وحده، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها...

عندئذٍ فقط كان للعرب وجود، وكانت لهم قوة، وكانت لهم قيادة.. ولكنها كانت كلها لله وفي سبيل الله وقد ظلت لهم قوتهم، وظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على نهج السلف الصالح، حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريَّتهم وعصبيتهم، وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية والقومية والقطرية نبذتهم الأرض وداستهم الأمم لأن الله قد تركهم حيثما تركوه، ونسيهم مثلما نسوه!

وهنا لا بدّ من وقفةٍ للجواب على سؤالٍ يدور في خواطر كثير من الناس في هذه الأيام، وهو ماذا نفعل أمام القوى العظمى وقد تحالفت جميعها لتثبيت الصهاينة على أرض فلسطين ولإذلال العرب والمسلمين حيثما وجدوا؟!

أقول لقد أخبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلّم عن هذ الحالة وغيرها بقوله: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قيل: يا رسول الله! فمن قلة يومئذٍ؟ قال: لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت»[1].

(١) رواه أحمد وأبو داود وصححه شيخنا الألباني حفظه الله.

فالوهن والضعف الذي أصاب الأمة سببه حب الدنيا وكراهية الموت، فإذا انتفى السبب زال أثره. ولكن حتى يزول الضعف عن الأمة فإنه يحتاج إلى فترة زمنية، وخلال هذه الفترة فلا بدّ من الإستعداد الجهادي والدعوي لمواجهة التحديات التي تنتظرها من قبل أعدائها، الذين لا يريدون لها إلا الإذلال والخضوع والتبعية لمناهجهم. وإن أقل ما يطلب من قادة الأمة هو أن يقفوا موقف عبد المطلب -السيد الهاشمي الوثني-، وأن لا يكونوا سيوفاً بأيادي أعداء الله لقطع رؤوس أولياء الله الذين يسعون لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى. وعليهم أيضاً أن لا يكونوا معاول هدم لصرح الإسلام، ذلك الدين الذي جعل لهم شأناً بين الأمم....

ولما كنت قد تبنيت اصدار سلسلة الأنوار الهاشمية بصورة كتب أو رسائل، كان لا بد لي أن أقف عند عبد المطلب -السيد الهاشمي الوثني- وأقول لمن يفتخرون بالآباء والأجداد، افتخار نسب متجرد عن التبعية في المنهج إن الله تعالى خلق الجنة لمن أطاعه وإن كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه وإن كان سيداً قرشياً وأوضح ذلك النبي الهاشمي صلّى اللّه عليه وسلّم حيث يقول: «يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس انقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة! أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً، سَأُبُلُّهاَ بِبَلاَلِها»[1].

(١) رواه مسلم والنسائي. ومعنى سأبلها ببلالها أي سأصل الرحم بصلتها.

وآل بيت الرجل أدر ، من غيرهم بأحوال البيت فإذا جهلوا أحوال بيتهم لم يعتد بأقوالهم. وآل بيت الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم يجب أن يكونوا أعرف من غيرهم ببيت النبوة حتى ينالوا شرف النسب وشرف الإتباع معاً وحتى تشملهم صلواتنا على النبي وآله. فإذا اكتفى أحدهم بالنسب دون الاتباع لم ينله إلاّ ما ناله أبو لهب، اللعنة في الدنيا وفي الآخرة يصلى ناراً ذات لهب!....

فعلى المسلم سواءٌ كان من آل البيت أو من العامة أن يجند نفسه لخدمة دين الله ولإعلاء كلمة الله ولمعونة أولياء الله ولمحاربة أعداء الله، فإذا فعل ذلك استحق النصر والتأييد من الله.

لقد أعجبني موقف الرئيس السوداني عمر البشير عندما وقف متحدياً لقوى الظلام والضلال والإلحاد وقال لهم «لا حوار حول الشريعة الإسلامية فمن أراد غير ذلك فليقابلنا في الميدان...». إنها كلمات تكتب بماء الذهب على صفائح من نور وتعلق على صدر كل مسلم تقديراً لقائلها في وقت تشوقت النفوس المؤمنة لسماع كلمات الرجولة من أفواه قادتها!.

وعلى أثر ذلك قام التحالف الصليبي الصهيوني بالضغط اقتصادياً وسياسياً على السودان بزعم أنه يحتضن الإرهاب والأصولية الإسلامية!.

ومن ضمن هذه الضغوط تحريض الدول المجاورة للسودان على معاداة حكومة السودان المسلمة وقطع العلاقات الدبلوماسيَّة بينهم وبينها، وتشجيع وحضانة المعارضة بجميع فئاتها ومختلف إنتماءاتها، وتزويدها بالأسلحة والأموال اللازمة لعملياتها التخريبية ضد السودان حكومة وشعباً. ولكن اللّه

أحبط مخططاتهم وردَّ كيدهم في نحورهم وجعل الدائرة عليهم، وكتب النصر لعباده المؤمنين المتممسِّكين بشرعة سيد المرسلين رغم أنوف الملحدين أعداء الدّين...

ولمّا رأى التحالف الصليبي الصهيوني الملحد صمود أهل الحق في حصنٍ منيع وما لحق بحلفائه من فشلٍ ذريع ودمار فظيع، أشار إلى حليفه الشنيع -فرعون مصر- للتحرش عسكرياً بالسودان وعلى الوجه السريع. فأطاع الطاغوت أسياده وأمر جنده بشنٍّ هجوم مباغت على أفراد الشرطة السودانيين المتواجدين في حلايب - المنطقة المتنازع عليها بين الدولتين- وقتلوا بعضهم بقصد إدخال السودان في حرب شَعْوَاء تأكلُ الأخضر واليابس. حرب يلتقي فيها المسلم مع أخيه المسلم. حرب يكون المستفيد الأول فيها هم أعداء اللّه وأعداء المسلمين...

ومع كل هذه المحاولات الفاشلة لم ينجح التحالف المشئوم في ثني هذا البلد المسلم عن النهج القويم الذي خطه له القادة الأفذاذ في رضوان الله ولم يأبهوا لسخط الكفرة والملحدين لأنهم يعلمون أن جند الله هم الغالبون.

يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾(١).

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله».

---

(١) سورة الفتح الآية (٧).

نعم أيـها الإخـوة إن لله جنـوداً في السـموات وفـي الأرض تعمـل على إعزاز كل من أسلم وجهه لله الواحد القهار، وتقطع دابر كل فاجر كفار.

فسبحان الله العظيم وبحمـده عدد ما خلق في السماء وفي الأرض وما بينهمـا كلما عسعس ليل وتـنفس نهار، وتبارك الذي يجـيب المضطر إذا دعاه وإن كان في ظلمـات البحار. اللهم اكـشف عنا ما أصابنا من البـلايا والأقدار وأدخلنا برحمتك في عبادك الأطهار وأعذنا يا رحمن من عذاب النار واجمعنا بفضلـك وكرمك مع النبي المصـطفى المختار صلّى اللّه عليه وعلى آله الأخـيار وأصحابه المتقين الأبرار وسلم تسليماً كثيراً. آمين.

(١٠)
لا ينفع حذر من قدر

هذه هي الفائدة العاشرة التي نجنيها من حدائق النبوة خلال مطالعتنا قصة التي بين أيدينا والتي هي من كلام النبي المصطفى والرسول المجتبى، ذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى صلى الله عليه وعلى آله أصحابه مصابيح الدجى وأهل الورع والتقى ومن سار على هديهم واقتفى. يث يقول متمماً: «فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. ال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب غلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد، صلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، م قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه فمات. فقال الناس: آمنا برب الغلام، فَأُتِيَ الملكُ فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك. قد آمن الناس. فأمر بالأخدود بأفواه سكك فَخُدَّت وأضرم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها و قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع بها، فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق».

إن مشهد الغلام وهو يقف أمام الملك متحدياً ليملأ القلب بالروعة روعة

الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والإنطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض. فقد كان في مقدور الراهب وجليس الملك والغلام أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون وكم كانت البشرية كلها تخسر وهم يقتلون معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد؟!

لقد قال الغلام للملك المتجبر: لئن كنت قادراً على حبس الأجساد وتعذيبها وتملك الجند والوسائل المادية لتحقيق رغباتك، فإنك لا تقدر على سحق الأرواح وفنائها إلا بأمر الله الذي هو ربي وربك وله ملك السموات والأرض ومن فيهن. وقد شاهدت بنفسك هذه الحقيقة، والتي لا تزول بزوال حملتها من البشر كما تظن أنت ويظن من كان على شاكلتك من الطغاة على مر الأزمان....

فكم قتلت بنوا اسرائيل من نبيٍّ، وكم قتل الطواغيت من مصلح ووليٍّ، وقاموا بإقصاء كل شهم وأبيّ ومن كان ذا خلق سويٍّ، وأزلفوا كل ملحدٍ شقيّ ومن كان في النهج غويّ وفي التفكير غبيّ... ومع ذلك كله ذهب باطلهم أدراج الريِّاح وكتبت الديمومة لصاحب الحقّ الجليّ!

ثم قال الغلام للملك: فإن كنت لا بد فاعلاً وإن كنت تريد قتلي فعليك السمع والطاعة لما آمرك به! إنها كلمات الأنوفة والعزة التي تنبع من النفوس المؤمنة حين تتصل بخالقها وتتمسك بعرى دينها. كلمات تتصدع من سماعها عروش الطغاة والمتجبرين لأنها تخالف الأسس التي أنشئت لها

والموازين التي أقيمت عليها تلك العروش. لقد اعتاد الملك أن يكون آمراً مطاعاً في مجتمع طلّق الدين والأخلاق وبنى على الأوهام قصوراً وقلاعاً، وادّعى لطاغوته الإلهام وروّج ذلك تزييفاً وخداعاً واقتلع الحق من منابته وصار أهله للباطل زرّاعاً وصنّاعاً. ويشاء الله أن يجعل لدعوة الحق في مثل هذا المجتمع أتباعاً، يحملون لواءها ولا يهمهم إذا باتوا بطاناً أو باتوا جياعاً، ولا يرجون من دنيا الناس أغراضاً وأطماعاً ولا سلا منيحةٍ ولا كراعاً...

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤمِنِينَ أَنْفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمِ﴾[1].

من بايع على هذا، من أمضى عقد الصفقة، من ارتضى الثمن ووفى. فهو المؤمن... فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا...ومن رحمة الله أنه جعل للصفقة ثمناً، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو مالك الأنفس والأموال، ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريداً؛ وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها -حتى مع الله- وكرمه فقيده بعقوده وعهوده؛ وجعل وفاءه بها مقياس انسانيته الكريمة؛ ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة. إنّ الحق لا بد أن ينطلق في طريقه، ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق!... بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق... إن دين الله لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده، ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق.. بل لا بد أن يقطع عليه الطريق... ولا بد لدين الله أن ينطلق في

(١) سورة التوبة، الآية (١١١).

الأرض كلها لتحرير الإنسان كله، ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقاً!... وما دام في الأرض كفر، وما دام في الأرض باطل، وما دامت في الأرض عبودية لغير الله تذل كرامة الإنسان فالجهاد في سبيل الله ماضٍ، والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء، وإلا فليس بالإيمان....

ولذلك كان أول كلام ربعي بن عامر مع كسرى عظيم فارس قوله «الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة...».

فملوك الدنيا المغمورون في الشهوات والملذات، المخمورون بمدح أصحاب النقائص والعاهات والمصابون بداء العنجهية واستعباد الفرد والجماعات... إن مثل هؤلاء الملوك ورؤساء الدول بحاجة إلى من يوقظهم من عميق السبات، ويذكرهم برب الأرض والسموات ويخرجهم من حوالك الظلمات إلى نور الإيمان والهدايات.... ولا بد أن يصدع أمامهم بمثل هذه الكلمات ويعرض عليهم المجابهة والتحديات ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة ولا يظلم ربنا أحداً من المخلوقات...

ولما سمع الملك كلام الغلام لم يكن بوسعه أن ينتقم لكبريائه ولا أن يدافع عن جاهه، لا لحلم يتصف به، ولا رأفةً برعيته بل لأنه قاصر عن تحقيق رغباته!. فكان لا بد أن يستجيب لتحدي من خرج عن طاعته وسلطانه.

وقال الملك للغلام: وما هو هذا الأمر الذي تريدني أن أفعله؟ فقال الغلام: «تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع: ثم خذ سهماً من

كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني».

فتعجب الملك من كلام الغلام إلا أن الإيمان لم يدخل قلبه، ولكن لا بد أن ينفذ الأمر إذا أراد التخلص من ندّه الموحّد والذي يرفض إعطاءه حق الألوهية كسائر الرعية!

إن هذا الأصولي المتطرف المتشدد يجب التخلص منه بشتى الوسائل المتاحة حتى لا تنتقل العدوى -كما يزعم الطواغيت- في المجتمع المتحضر! ويعنون المجتمع المتحلل من الدين والأخلاق والقيم النبيلة. والأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف.

والطواغيت في هذه الأيام أشرس وأخطر من أسلافهم، حيث أن منهم من يلبس زي الإسلام ويتشدّق بكلام ظاهره الإيمان وباطنه المودة لأولياء الشيطان والعداوة لأولياء الرحمن وما يترتب على ذلك من ملاحقتهم في البلدان، وقتلهم وتعذيبهم بالحديد والنيران بتهمة الإفساد في الأرض وتخريب مصالح الأوطان والخروج على السلطان إلى غير ذلك من الفرية والبهتان. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالواحد الديان ويطالبوا بتحكيم شرعة القرآن والأدهى من ذلك أن يقوم فينا خطيباً واحدٌ من عبدة الصلبان مخنث شاذ يشعر بالمتعة إذا عاشره الذكران -قبحه الله- ويقول: «سنقضي على الإرهاب...» ويقصد بذلك القضاء على أصحاب الفهم السليم لدين الإسلام! لإن هؤلاء هم فقط الذين يتلون القرآن حق تلاوته، وهم فقط الذين يفهمون ما يقرءون ويعملون بمقتضى ما يفهمون.

فالمجاهدون في سبيل الله في فلسطين يقاتلون الصهاينة المغتصبين لأرضهم والمستحلين لدمائهم وأعراضهم، فهم ليسوا إرهابيين... والمجاهدون في سبيل الله في البوسنة والهرسك يقاتلون الصليبيين من الصرب المغتصبين لأرضهم والمنتهكين لأعراضهم، فهم أيضاً ليسوا إرهابيين.. وكذلك المجاهدون في سبيل الله في الشيشان وكشمير وبورما والفلبين وغيرها من بلدان العالم، يقاتلون أعداءهم دفاعاً عن معتقداتهم وأرضهم وأموالهم وأعراضهم فهم ليسوا إرهابيين... إنما الإرهابيون الذين يعتدون على حقوق الآخرين ويسلبون خيراتهم ويتحكمون في مصير شعوبهم باسم الأمم المتحدة أحياناً، وتحت شعار حقوق الإنسان أحياناً أخرى...

إن النظام العالمي الجديد المتمثل بالتحالف الصهيوني الصليبي الملحد لهو نظام قائم على الإرهاب والاغتصاب ونشر الفساد والدمار والخراب فلا غرابة في ظل هذا النظام أن تضيع الحقوق وتتصدع الجدر الواقية وتعظم فيها الشقوق، ويتهم المسلم الشهم الأبي بالتطرف والعقوق ولكن لا بد لهذا النظام أن ينجلي بظهور الإسلام كما تنجلي الظلمة في وقت الشروق.

وقام الملك بتنفيذ الأمر، وكان أول شرط للغلام جمع الناس في ساحة واحدة ليشاهدوا الواقعة عن قرب ويرونها رأي العين من أجل أن يحكموا على مجريات الأمور بعيدين عن زيف الإعلام وخداعه، ذلك الإعلام الذي تشرف عليه بطانة السوء فيشوبه الكذب والدجل، ويزين من خلاله للملك ورعيته سوء العمل، وتسوَّفُ الصالحات -إن وجدت- إلى طويل الأجل، وتنتهك الحرمات ويجهر بالمعاصي بلا خوف ولا حياء ولا خجل، ويراقب المؤمن في حركاته وهمساته وما يكتب من صحيح الجمل، ويقف أمام

محاكم التفتيش كل من يتهم النظام بالفشل وخيبة الأمل، ويبين للساسة ما أصاب عقولهم من خبل ونفوسهم من علل وإسلامهم -إن كانوا مسلمين- نقص وخلل.. وكان أحرى بهم أن يسمعوا النصح ويقوِّموا العوج قبل فوات الفرصة ومباغتة الأجل!.

إن أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والملحدين يقومون بغزونا فكرياً وثقافياً عبر وسائل الإعلام المتطورة، ومن خلال اختراق وسائلنا الإعلامية والتي يتربع على منصاتها ثلة من أبناء جلدتنا ممن باعوا اخراهم بدنيا أعدائهم، يدَّعون التحرر لأقلامهم في الصحافة وما ذلك إلا حرب على الدين والأخلاق ونشر الخرافة والتعتيم على كل صحيفة لا تتمشى مع أساليب المكر والخداع والسخافة!...

لقد حاربوا فكرنا وثقافتنا وهما الركيزتان اللتان يقوم عليهما كيان الأمة ومجدها وعزها، وبهما فقط ساست أمتنا الشعوب وقادت الأمم، فلمّا تغلبوا علينا في هذا المجال أصابنا الخذلان وصرنا في اللمم لا بل في العدم!.

ولم تزل هذه الحرب الشعواء تعصف في البلدان العربية والإسلامية حتى ظهر في الأمة من ينادي بفصل الدين عن الدولة، والسماح بحرية الفكر والإعتقاد في ظل نظام يساوي بين المسلم والمرتد، وبين الموحد وعبدة الصليب والحجر والشمس والقمر والكواكب والشجر!

وظهر في الأمة من ينادي بالتعايش السلمي مع اليهود المغتصبين للأرض والمنتهكين للعرض والمتصفين بالخيانة والنقض، قتلة الأنبياء، وفعلة المنكر والفحشاء، وسحرة أعين الملوك والرؤساء بأساليب المكر والدهاء حتى تهافتوا

عليهم تهافت الفراش على الأضواء. وما ذلك في الحقيقة إلا كمن يأمل أن يجد الماء في سراب الصحراء! فهيهات أن يَصْدُقَهُمْ الصهاينة الأشقياء.

ولا أدري أي سلام هذا الذي ينادون به ويفخرون بتحقيقه، في وقت لا تزال الأرض تصادر وتغتصب والأموال تسلب، والأنفس تقتل بغير ذنب وتصلب، وخيرات البلاد تنهب، والإقتصاد يضعف ويخرب وإعلامنا الساذج يقول حققنا انتصاراً ولم نُغلب وصافحنا العدا ولم نُرعب، وكفينا الغذاء ولم نتعب أنَّى لهم ذلك القول الناجع والشعب من فحش الغلاء يصخب، ومن شديد المصائب ينحب، ومن زيف الأعلام وتلونه يعجب، ويجأر إلى الله يشتكي من فتن تتأجج نيرانها من جور الظالمين وتلهب، وأرض الإسلام بدم الموحدين والمخلصين بالحمرة تخضب! ... رحماك ربنا فنحن عبادك في جنتك نطمع ونرغب، ومن نارك وعذابك نخاف ونرهب....

ومن منظور آخر -فقهي وعقائدي- فإن فلسطين هي أرض إسلامية، فلا يجوز أن يظهر أهل الكتاب فيها شعائرهم التعبدية كما اشترط عليهم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمعنى أنه لا تصلح قبلتان بأرض الإسلام. هذا إن كانت الأرض أرض صلح وخراج. أما إن كانت أرض عنوة، فللإمام هدم دور العبادة الخاصة بأهل الكتاب مجتهداً أو متبعاً لمن يرى ذلك من أهل العلم في زمانه، ويجب على المسلمين طاعته في ذلك وتنفيذ أمره. وهذا باتفاق العلماء من أهل المذاهب الأربعة، أبي حنيفة، ومالك والشافعي وأحمد، وغيرهم من الأئمة، كسفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وغيرهم، ومن قبلهم من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين. كما

نقل عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وطيب ثراه[1].

وإذا كان هذا قول الفقهاء في حكم إظهار شعائر الكفر في أرض الإسلام، فكيف ببعض ولاة أمر المسلمين يجيزون تحويل أرض الإسلام إلى أرض كفر -باعترافهم بدولة الصهاينة على أرض فلسطين المسلمة- من غير الإستناد إلى دليل شرعي من كتاب الله وسنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأقوال السادة العلماء؟! فإن قالوا عندنا دليل، طلبنا إحضاره: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فإن لم يفعلوا قلنا لهم ما قاله ربنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[2].

فإن قالوا نحن مضطرون لفعل ذلك لأن الأمة في حالة ضعف عام، والعدو أقوى منا على مجابهة التحديات. قلنا لهم إن للضرورات أحكام ومقتضيات وحدود ونهايات لا يجوز الخروج عنها حتى في أضيق المسارات. فلو سلمنا جدلاً بصحة ما تقولون فإن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال أن يوصف المهرِّجين لعملية السلام بالأشاوس الأبطال ومخالفيهم بالشرذمة الأنذال، ولا يعني ذلك أن تسلم الأوطان ويخذل الشجعان وتباع الأرض بأبخس الأثمان لليهود والنصارى وعبدة الأوثان. ولا يعني ذلك أيضاً أن تقدم شرائع البشر على شريعة القرآن، فإن فعل ذلك من الكفران، وادعاء محبة الله ورسوله بعده من الكذب والبهتان لأن المحب لمن يحب مطيع في مختلف الأزمان....

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (٦٣٤/٢٨).

(٢) سورة يونس الآيتان (٦٩-٧٠).

لقد جعل الشارع الحكيم الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وجعله فريضة عين على كل مسلم في حالة انتهاك الحرمات واغتصاب الأرض والممتلكات وتدنيس المقدسات.

إن عبَّاد الصليب عاثوا في الأرض فساداً، احتلوا الديار المقدسة في فلسطين وقتلوا المسلمين حتى سالت الدماء في الطرقات، وعلقوا الصليب على قبة الصخرة وحوَّلوا المسجد الأقصى إلى كنيسة لهم، ومكثوا في الديار الإسلامية ما يقرب من قرنين من الزمان إلى أن هيأ الله للأمة قادة أوفياء رفعوا راية الجهاد في سبيل الله فحرروا الديار وكسروا شوكة الكفار وطهروا المقدسات من أرجاس حملة الصليب الأشرار. فرحم الله صلاح الدين الأيوبي وآل زنكي وقطز ومن كان معهم من الأخيار. وقيد اللَّه لهذه الأمة من يقودها إلى المعالي ويذيق أعداءها الذل والهوان والصغار.

وعَوْداً إلى مشهد الغلام وهو مصلوب على الجذع ولسان حاله يقول لجموع المحتشدين إن ملككم الذي يدَّعي الربوبية لنفسه لا يقدر على إزهاق روحي حتى يذكر اسم ربي ومولاي الذي أدعوكم لعبادته بعد أن تروا الحقيقة بأعينكم. ويقدم الملك يجر ثوب الخيلاء ومن حوله حاشيته وأهل الخبث والدهاء، ويقوم بأخذ سهم من كنانة الغلام ثم يضعه في كبد القوس ثم يقول بأعلى صوته: بسم الله رب الغلام ثم يرمي الغلام فيقتله فيقول الناس أمام هذه الحقيقة التي لا يشوبها زيف ولا خداع «آمنا برب الغلام». آمنا بالله رباً لأنه قادر على تنفيذ أمره في أي وقت يريد وفي أي مكان يريد ولن يعجزه أحد من العبيد. آمنا بالله رباً لأنه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده مقاليد السموات

والأرض وهو على كل شيء قدير.... آمنا به رباً رغم أنوف الطغاة المتجبرين وتحدياً لحملة السياط المجرمين، فإن عشنا عشنا مؤمنين معززين مكرمين وإن متنا رضينا بقضاء رب العالمين وهو لا يضيع أجراً المحسنين. لقد ضحى الغلام بنفسه ليحيى الناس من بعده على الإيمان ولتوقد بدمائه سُرُج الهدى ومصابيح البيان ولتقوم على أشلائه قلاع الصمود تدمر عروش الجبابرة وتقضي على الطغيان...

عندما توفي النبي صلى اللّه عليه وسلم وانتقل إلى الرفيق الأعلى أصيبت الأمة بمصيبة من أعظم المصائب، فمن المسلمين من صدَّق الخبر ومنهم من كذَّبه، ومنهم من ثبت على الإيمان ومنهم من عاد إلى عبادة الأوثان. وقال أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه: «من كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد اللّه فإنَّ اللّه حي لا يموت». بمعنى أن دين اللّه لا يرتبط بمن يحمله من البشر إنما ارتباطه بالله ربِّ العالمين...

لقد مات الغلام ولم تمت تضحيته، ومات سعيد بن جبير ولم تمت روايته، ومات سيد قطب ولم تمت كلماته ودعوته، ومات عبد الله عزام ولم تمت وصيته، ومات كثيرٌ من أبطال شعب فلسطين ولم تمت انتفاضته، ومات الجهاد في حياة الخونة المتخاذلين ولكن في حياة المؤمنين المخلصين لم تمت حقيقته وفي قلوب أعداء الإسلام لم تمت هيبته. فتبّاً لمن رضي بالحياة وقد ماتت شهامته ونخوته وضاعت أصالته!!!....

وصدق الشاعر المتنبي حيث يقول:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارُها وتصغر في عين العظيم العظائم

وأمام المشهد المروع مشهد الغلام وهو مصلوب والسهم في صدغه والدم الطاهر الزكي قد سال على جسده، والروح قد صعدت إلى بارئها في موكب مهيب تزفها ملائكة الرحمن مبشرة لها بقول العزيز الحميد: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ. مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ. ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ. لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.(١)

أمام هذا المشهد وغيره من مشاهد التضحية يقف المؤمن مشدوداً بفكره إلى قول النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم «إذا احُضِرَ المؤمنُ أتَتْهُ ملائكةُ الرحمةِ بحريرةٍ بيضاءَ، فيقولونَ: اخرُجي راضيةً مَرضياً عنكِ، إلى رَوْحِ اللَّهِ وريحان، وربٍّ غيرِ غضبان، فتخرجُ كأطيبَ ريحِ المسكِ، حتَّى أنَّه لَيُناوِلَهُ بعضُهُمْ بَعْضاً، حتَّى يأتونَ به بابَ السّماءِ، فيقولونَ: ما أطيْبَ هذه الرِّيحُ، التَّي جاءتكمْ من الأرضِ، فيأتونَ به أرواحَ المؤمنينَ، فَلَهُمْ أشدُّ فَرَحاً به منْ أحَدِكُمْ بغَائبِه يَقْدُمُ عليه. فيسألونَهُ: مَاذا فَعَلَ فُلانٌ، ماذا فَعَلَ فُلانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فإنَّه كانَ في غمِّ الدُّنيا، فإذا قال: أمَا أتاكُمْ؟ قالُوا: ذُهِبَ به إلى أمِّه الهاوية. وإنَّ الكافرَ إذا احتُضِرَ أتَتْهُ ملائكةُ العَذَاب بمَسْحٍ فيقولونَ: أخرُجِي ساخطةً مَسْخُوطاً عليكِ، إلَى عذابِ اللَّه عزَّ وجلَّ، فَتَخْرُجُ كأَنْتَنَ ريحِ جيفَةٍ، حتّى يَأتُونَ به الأرضِ فيقولونَ: مَا أنْتَنُ هَذهِ الرِّيح، حتَّى يأتونَ بِهِ أرْواحَ الكفَّارِ»(٢).

لقد حضرت الملائكة ذلك الجمع المشهود، فكان لا بد للشياطين ان

---

(١) سورة ق الآيات (٣١-٣٥).
(٢) انظر صحيح النسائي (١٧٢٩) وهو حديث صحيح.

تغادر الحدود، وتتحرر أفكار الناس من أغلال الجاهلية والقيود، وتتجه القلوب نحو وحدانية الإله المعبود خالق الكون والذي إليه يرجع الأمر كله في هذا الوجود.....

وبالفعل نزلت الملائكة بالسكينة على قلوب المؤمنين الذين أخفوا إيمانهم خوفاً من بطش الملك وزبانيته، فإذا بأصواتهم ترتفع وإذا بنور الحق ينصدع وإذا بظلام الباطل ينقشع، وإذا بالألسن تقول: «آمنا برب الغلام» والنفوس نحو الشهادة في سبيل الله تندفع..

وقيل للملك «أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك. قد آمن الناس....».

إن هذه العبارة القيمة يجب أن تعلق في البهو حيث يسمر الحكام مع بطانتهم ينهشون لحوم المتقين الأبرار والمخلصين الأحرار ويخططون للقضاء عليهم في الليل والنهار وفي جميع الأمصار، إرضاءً لأسيادهم الكفار، وطمعاً في دنيا فانية ودار للبوار. كما يجب أن تعلق هذه العبارة في قصور الطغمة الحاكمة داخل الأسوار الشاهقة والأسلاك الشائكة لتزيل ظلمة القلوب الحالكة ولتتعظ نفوسهم بمصير الأمم الهالكة...

أيها الملك: لقد كنت شديد الحذر من الغلام وصاحبيه فقمت بقتلهم على رؤوس الأشهاد خوفاً على دعائم عرشك أن تتصدع، ومنعاً لبشائر الخير والهدى أن تعُمَّ وتتوزع، وها أنت في نهاية الأمر تجد من رعيتك ما لم تكن تتوقع، ويفر من حولك الناس بعد أن عايشوا طويلاً حياة المستنقع....

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً. إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً. وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً. يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.[1]

إن طواغيت البشر خاصة وأهل الكفر والظلم والجور عامة يغفلون عن رؤية الخير والهدى لأنفسهم، ويختارون العاجلة الفانية على الآخرة الباقية، ومثل هؤلاء لا يطاعون في أمر، ولا يتبعون في طريق ولا منهج، ولا يلتقون مع المؤمنين في غاية ولا هدف، لما لهم من ثراء وسلطان ومتاع في هذه الدنيا التي لو كانت لها قيمة عند الله عز وجل لم يسقهم منها شربة ماء. فالله تعالى الذي أعطاهم القوة والسلطان قادرٌ على نزعها منهم في أي وقت شاء وكيف ما يشاء وإن أمهلهم إلى أجل مسمى فليس معنى ذلك أن لهم الديمومة والبقاء وإنما ليزدادوا شقاء على شقاء...

إن وظيفة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام هي التبليغ والتذكير وكذلك هي وظيفة الدعاة إلى الله عز وجل، فمن أراد الله له الهداية وسعى في طلبها هداه الله إلى الصراط المستقيم، ومن لم يأخذ بأسباب الهداية وركن إلى الشهوات واتبع سبل الغواية أزاغ الله قلبه والله لا يهدي القوم الفاسقين. والهداية والغواية مرتبطتان إرتباطاً وثيقاً بالمشيئة الإلهية، فالله تعالى هو الفاعل المختار، المتصرف القهار، مقلب الليل والنهار مجيب دعوة المضطرين في البر والجو وفي ظلمات البحار. وهنا لا بد من وقفة لتوضيح شبهات القدرية

(١) سورة الإنسان الآيات (٢٨-٣١).

والجبرية وغلاة الأشعرية الذين خالفوا عقيدة أهل السنة والجماعة والقدوة السلفية.

قالت القدرية: إن كل ما في الوجود من المعاصي واقع بدون مشيئة الله وإرادته كما هو واقع خلاف أمره وخلاف محبته ورضاه. ودليلهم أن الله لا يحب الفساد والكفر والفسوق والعصيان، والمحبة عندهم بمعنى الأمر بالشيء المحب وكذلك الإرادة وعلى هذا قالوا: لا يكون الله مريداً لغير ما أمر به.

وقالت الجهمية ومن اتبعها من الأشعرية وأمثالهم: قد علم بالكتاب والسنة والإجماع أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، ولا يكون خالقاً إلا بقدرته ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وكل ما في الوجود فهو بمشيئته وقدرته وهو خالقه، سواء في ذلك أفعال العباد وغيرها، ثم قالوا: وإذا كان مريداً لكل حادث والإرادة هي المحبة والرضا، فهو محب راض لكل حادث؛ وقالوا: كل ما في الوجود من كفر وفسوق وعصيان فإن اللّه راض به محب له كما هو مريد له....

وكلا القولين خطأ قبيح وكفر صريح فإن العبد له مشيئة وهي تابعة لمشيئة الله كما قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾[1].

فإذا كان الله قد جعل العبد مريداً مختاراً شائياً امتنع أن يقال هو مجبورٌ مقهور مع كونه قد جعل مريداً. والعبد فقير إلى الله فقراً ذاتياً له في ذاته

(١) سورة التكوير الآيتان (٢٨-٢٩).

وصفاته وأفعاله مع أن له ذاتاً وصفات وأفعالاً، فنفي أفعاله كنفي صفاته وذاته وهو جحد للحق شبيه بغلو غالية الصوفية الذين يجعلونه هو الحق أو جعل شيء منه مستغنياً عن الله أو كائناً بدونه جحد للحق شبيه بغلو الذي قال: (أنا ربكم الأعلى) وقال أنه خلق نفسه. وإنما الحق ما عليه أهل السنة والجماعة على أن العبد فاعل لفعله الإختياري وأنه قادر عليه ومريد له.

والآيتان السابقتان تردّان على الطائفتين المعتزلة القدرية، والجبرية الجهمية، فأما الآية الأولى فهي رد على الجبرية لأنها تثبت للعبد مشيئة وفعلاً، وأما الأية الثانية فهي رد على القدرية لأنها تبين أن مشيئة العبد معلقة بمشيئة الله. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. جاء لبيان مدح الرب جل وعلا والثناء عليه ببيان قدرته وبيان حاجة العباد إليه. ولو كان المراد لا تفعلون إلا أن يأمركم لكان كل أمر بهذه المثابة، فلم يكن ذلك من خصائص الرب التي يمدح بها، وإن أريد أنهم لا يفعلون إلا بأمره كان هذا مدحاً لهم لا له.

ولقد رأيت أن انقل للقراء كلاماً لشيخ الإسلام ابن تيمية -طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه- يرد به شبهات قد تعلق في أذهان بعض الناس نتيجة كثرة سواد المبتدعين في بلاد المسلمين وقلة العلماء الصالحين. يقول رحمه الله: «أن يعلم العبد أن الله يأمر بالأيمان والعمل الصالح، ويحب الحسنات ويرضاها، ويكرم أهلها، ويثيبهم ويواليهم ويرضى عنهم، ويحبهم ويحبونهم، وهم جند الله المنصورون، وحزب الله الغالبون، وهم أولياؤه المتقون، وحزبه المفلحون، وعباده الصالحون أهل الجنة، وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، وهم أهل الصراط المستقيم. صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين. وأن الله نهى عن السيئات من الكفر والفسوق

والعصيان، وهو يبغض ذلك ويمقت أهله، ويلعنهم ويغضب عليهم ويعاقبهم ويعاديهم، وهم أعداء الله ورسوله، وهم أولياء الشيطان وهم أهل النار، وهم الأشقياء، لكنهم يتقاربون في هذا ما بين كافر وفاسق، وعاص ليس بكافر ولا فاسق.

وأن يعلم العبد أن الله رب كل شيء وخالقه ومليكه. لا رب غيره ولا خالق سواه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا حول ولا قوة إلا به، ولا ملجأ منه إلا إليه، وأنه على كل شيء قدير فجميع ما في السموات والأرض من الأعيان وصفاتها وحركاتها، فهي مخلوقة له، مقدورة له مصرفة بمشيئته، لا يخرج شيء منها عن قدرته وملكه، ولا يشركه في شيء من ذلك غيره، بل هو سبحانه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فالعبد فقير إلى الله في كل شيء، يحتاج إليه في كل شيء لا يستغني عن الله طرفة عين، فمن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

فإذا ثبتت هاتان المقدمتان، فنقول: إذا ألهم اللَّه العبد أن يسأله الهداية ويستعينه على طاعته، أعانه وهداه، وكان ذلك سبب سعادته في الدنيا والآخرة، وإذا خذل العبد فلم يعبد الله؛ ولم يستعن به، ولم يتوكل عليه، وُكِّلَ إلى حوله وقوته، فيوليه الشيطان، وصد عن السبيل، وشقي في الدنيا والآخرة. وكل ما يكون في الوجود هو بقضاء الله وقدره، لا يخرج أحد عن القدر المقدور، ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المحفوظ، وليس لأحد على الله حجة، ﴿بلْ لِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِين﴾ كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل.

وعلى العبد أن يؤمن بالقدر وليس له أن يحتج به على الله، فالإيمان به هدى، والاحتجاج به على الله ضلال وغيّ، بل الإيمان بالقدر يوجب أن يكون العبد صباراً شكوراً، صبوراً على البلاء، شكوراً على الرخاء، إذا أصابته نعمة علم أنها من عند الله فشكره سواء كانت النعمة حسنة فعلها، أو كانت خيراً حصل بسبب سعيها، فإن الله هو الذي يَسَّرَ عمل الحسنات وهو الذي تفضل بالثواب عليها فله الحمد في ذلك كله، وإذا أصابته مصيبة صبر عليها، وإن كانت تلك المصيبة قد جرت على يد غيره، فالله هو الذي سلط ذلك الشخص، وهو الذي خلق أفعاله، وكانت مكتوبة على العبد، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُم وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[2]. قالوا: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسلِّم.

وعليه إذا أذنب أن يستغفر ويتوب، ولا يحتج على الله بالقدر ولا يقول: أي ذنب لي وقد قدر علي هذا الذنب، بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب، وإن كان ذلك كله بقضاء الله وقدره ومشيئته، إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته وخلقه، لكن العبد هو الذي أكل الحرام وفعل الفاحشة، وهو الذي ظلم نفسه، كما أنه هو الذي صلى وصام وحج وجاهد،

(١) سورة الحديد، الآيتان (٢٢-٢٣).
(٢) سورة التغابن، الآية (١١).

فهو الموصوف بهذه الأفعال، وهو المتحرك بهذه الحركات، وهو الكاسب بهذه المحدثات، له ما كسب وعليه ما اكتسب، والله خالق ذلك وغيره من الأشياء لما له في ذلك من الحكمة البالغة بقدرته التامة ومشيئته النافذة، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[1]. فعلى العبد أن يصبر على المصائب وأن يستغفر من المعائب.

والله تعالى لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد وهو سبحانه خالق كل شيء، وربه ومليكه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. فمن يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ومشيئة العبد للخير والشر موجودة، فإن العبد له. مشيئة للخير والشر. وله قدرة على هذا وهذا وهو العامل لهذا وهذا، والله خالق ذلك كله وربه ومليكه، لا خالق غيره ولا ربٌّ سواه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

فالإنسان إذا أصابته المصائب. بذنوبه وخطاياه كان هو الظالم لنفسه، فإذا تاب واستغفر جعل الله له من كل همٍّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب، والذنوب مثل أكل السم؛ فهو إذا أكل السم مرض أو مات، فهو الذي يمرض ويتألم ويتعذب ويموت، والله خالق ذلك كله وإنما مرض بسبب أكله، وهو الذي ظلم نفسه بأكل السم، فإن شرب الترياق النافع عافاه الله. فالذنوب كأكل السم، والترياق النافع كالتوبة النافعة، والعبد فقير إلى الله تعالى في كل حال، فهو بفضله ورحمته يلهمه التوبة، فإذا تاب تاب عليه، فإذا سأله العبد ودعاه استجاب دعاءه كما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ

(١) سورة غافر الآية (٥٥).

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

ومن قال: لا مشيئة له في الخير ولا في الشر فقد كذب، ومن قال: أنه يشاء شيئاً من الخير أو الشر بدون مشيئة الله فقد كذب، بل له مشيئة لكل ما يفعله باختياره من خير وشر، وكل ذلك إنما يكون بمشيئة الله وقدرته فلا بدّ من الإيمان بهذا وهذا، ليحصل الإيمان بالأمر والنهي والوعد والوعيد، والإيمان بالقدر خيره وشره، وإنما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه...

ومن احتج بالقدر على المعاصي فحجته داحضة، ومن اعتذر به فعذره غير مقبول، بل هؤلاء هم الضالون، كما قال فيهم بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به، فإن هؤلاء إذا ظلمهم ظالم، بل لو فعل الإنسان ما يكرهونه وإن كان حقاً لم يعذروه بالقدر. بل يقابلوه بالحق والباطل، فإن كان القدر حجة لهم فهو حجة لهؤلاء، وإن لم يكن حجة لهؤلاء لم يكن حجة لهم، وإنما يحتج أحدهم بالقدر عند هواه ومعصية مولاه، لا عند ما يؤذيه الناس ويظلمونه.

وأما المؤمن فهو بالعكس في ذلك إذا آذاه الناس نظر إلى القدر فصبر واحتسب، وإذا أساء هو تاب واستغفر، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾. فالمؤمن يصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب والمعايب، والمنافق بالعكس لا يستغفر من ذنبه بل يحتج بالقدر، ولا يصبر

(١) سورة البقرة، الآية (١٨٦).

على ما أصابه. فلهذا يكون شقياً في الدنيا والآخرة، والمؤمن يكون سعيداً في الدنيا والآخرة. والله سبحانه أعلم»[1] أ.هـ.

وعَوْداً إلى مشهد القصة حيث وقف الملك مندهشاً أمام حقيقة القدر الكونية، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. هذه الحقيقة التي تقول أن البقاء والديمومة والعلو والتمكين لا يكون إلا لعباد اللّه المؤمنين... ومع ذلك لم يتأثر بهذه الحقيقية، بل أصرّ على التحدي وهذا شأن الطغاة على مر العصور. فأمر بحفر الخنادق في الطرقات واضرام النيران فيها، وأعطى الأوامر لزبانيته بأن يلقوا في النار كل مؤمن بالله ما لم يرجع عن ذلك ويعود إلى دين الملك، ففعلوا، حتى جاءت امرأة تحمل ابنها، فتقاعست أن تقع فيها خوفاً وشفقة على طفلها لا على نفسها لأنها باعت نفسها لله يوم أن أعلنت إيمانها برب الغلام. ويمكن أيضاً أنها شعرت بالخوف على نفسها بسبب هول الموقف، فَذَكَّرَهَا ابنها بالصبر على الابتلاء طالما أنها على الحق وتبتغي مرضات رب السماء.

لقد أنطق الله الغلام الرضيع إكراماً لأمه وتشجيعاً لها للثبات على الحق، وتعليماً لكل مؤمن بالله أن الإيمان يحتاج إلى تضحيات وصبر على الإبتلاءات وصمود أمام التحديات...

وكذلك أنطق الله ثلاثة من بني إسرائيل في المهد لنصرة الحق وأهله، كما جاء في الحديث المتفق على صحته عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة[2]: عيسى بن مريم، وصاحب جريج، وكان جريجٌ

(١) انظر مجموع الفتاوى (٨/٢٣٥-٢٤١).
(٢) أي من بني اسرائيل حيث أنه تكلم غيرهم في المهد.

رجلاً عابداً، فاتخذ صومعةً[1] فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلي فقالت: يا جريج فقال: يا رب أمي وصلاتي[2] فأقبل على صلاته فانصرفت. فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: أي رب أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته. فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: أي رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات[3]. فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته، وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه، فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته، فأمكنته من نفسها فوقع عليها. فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه فقال: ما شأنكم؟ قالوا زنيت بهذه البغيّ فولدت منك. قال: أين الصبي؟ فجاءوا به فقال: دعوني حتى أصلي، فصلى، فلما انصرف أتى الصبي. فطعن في بطنه فقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي، فأقبلوا على جريج يُقَبِّلُونَهُ ويتمسحون به وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا. وبينا صبي يرضع من أمه، فمر رجلٌ راكبٌ على دابة فارهة[4] وشارة[5] حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي فأقبل إليه فنظر إليه فقال: «اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع» فكأني أنظر إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه، فجعل يمصها، قال: ومرّوا بجارية

(١) البناء المرتفع المجدد أعلاه.
(٢) أي اجتمع عليَّ إجابة أمي وإتمام صلاتي، فوفقني لأفضلهما.
(٣) الزواني.
(٤) حاذقة نفيسة.
(٥) الجمال الظاهر في الهيئة والملبس.

وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر اليها فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهنالك تراجعا الحديث[1] فقالت: مر رجل حسن الهيئة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمَة وهم يضربونها ويقولون: زنيتِ سرقتِ، فقلتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلتَ: اللهم اجعلني مثلها؟! قال: إن ذلك الرجل كان جباراً فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زنيتِ، ولم تزنِ، وسرقتِ، ولم تسرقْ، فقلت: اللهم اجعلني مثلها».

ونتيجة لفضل أصحاب الأخدود وعظم تضحياتهم من جهة، وفظاعة المذبحة الجماعية التي أمر بها الملك الطاغية من جهة أخرى، فقد جاء ذكر هذه الحادثة التاريخية في كتاب الله، لتتلوها الأجيال تلو الأجيال فتكون نبراساً ومنارة يهتدي بنورها المؤمنون المجاهدون، وشارة تحذيرية لطواغيت الأمم على مر القرون. يقول الله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ. وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ. وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ. قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ. إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ. إِنَّهُ

(١) أي حدثت الصبي وحدثها.

هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ. وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ. ذُو الْعَرشِ المَجِيدِ. فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ. هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الجُنُودِ. فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ. وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ محِيطٌ. بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾.

ومن خلال آيات سورة البروج يأتي وعيد الله وتهديده للذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات في هذه الدنيا بأن لهم نار جهنم. ولئن كانت النار التي أحرقوا فيها المؤمنين هي من صنيعهم ولأجل محدود، فإن نار جهنم هي من صنع الخالق جل وعلا وإلى آباد لا يعلمها إلا الله. ومع حريق الدنيا كان رضى اللّه عن المؤمنين الذي تجلّى بانتصار المعنى الإنساني الكريم، ومع حريق الآخرة يكون غضب الله على الكافرين وما يعقبه من ارتكاس لكل معنى هابط ذميم.

والله تعالى فعّالٌ لما يريد. يريد مرة أن ينتصر المؤمنون به في هذه الأرض لحكمة يريدها، ويريد مرة أن ينتصر الإيمان على الفتنة وتذهب الأجسام الفانية لحكمة يريدها... يريد مرةً أن يأخذ الجبارين في الأرض، ويريد مرة أن يمهلهم لليوم الموعود.. لحكمة تتحق هنا وتتحق هناك، في قدره المرسوم...

فهذا المشهد طرف من فعله لما يريد، وتبقى حقيقة الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث ووراء الحياة والكون تفعل فعلها في الوجود.

والله الذي أهلك فرعون وجنوده في البحر وأنجى موسى عليه السلام وبني اسرائيل ومكن لهم في الأرض، وكذلك أهلك ثمود عن بكرة أبيهم وأنجى صالحاً عليه السلام والقلة المؤمنة، هو وحده قادرٌ على نصرة الفئة المؤمنة حيثما كانت وأينما وجدت....

لقد قال القرآن الكريم في قصة الغلام وأصحاب الأخدود مقالته، وأوضح لكل فريق مكانته، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة المتقين. اللهم احفظنا بالإسلام قائمين، واحفظنا بالإسلام قاعدين، واحفظنا بالإسلام راقدين، ولا تشمت فينا عدواً ولا حاسدين. برحمتك يا أرحم الراحمين. آمين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الخاتمة

أعْلَمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ المؤمنين من هذه الأمة في كثير من آياته في كتابه الكريم، ما كان يلقاه مَنْ وَحَّدَ قبلهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك. وذكر لهم النبي صلّى الله عليه وسلّم قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام، والمشقات الجسام التي كانوا عليها، ليتأسوا بمثل هذا الغلام، في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في سبيل إظهار دعوته،ودخول الناس في الدين، مع صغر سنه وعظم صبره. وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار. وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا عن دينهم، وهذا من باب الأخذ بالعزائم كما قال تعالى مخبراً عن لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1]. وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[2].

ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالقتل والصلب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من الرخصة التي منحها الله لمن لم يقوى على ذلك. ويكفي ما جاء في قصة عاصم وخبيب

(١) سورة لقمان الآية (١٧).

(٢) حديث صحيح أخرجه الترمذي.

وأصحابهما وما لقوا من الحروب والمحن والقتل والأسر والحرق، وغير ذلك...

والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف لأنه إذا صبر واحتسب نال إحدى الحسنيين، إما الشهادة وإما النصر والتمكين في الأرض. وكلما اشتدت الكروب والمحن قرب الفرج لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ. لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

ولما كان سيد قطب رحمه الله واحداً من الذين أخذوا بالعزيمة في هذا القرن ولم يتراجع عن مبادئ دينه بالرغم من الأغراءات التي قدمت له، وبالرغم من حبال المشنقة التي كانت تنتظر عنقه، إلاّ أن ذلك كله لم يصده عن قول الحق عند سلطان جائر، ولم يجف قلمه عن تدوين الحقائق التي يلزم الدعاة إلى الله معرفتها في طريق الدعوة الطويل. ولم يرجف أمام بيان زيف الزائفين، والتحذير من مكر الماكرين ولذلك كانت كلماته نوراً تساعد المؤمن الداعية على مواكبة طريق الدعوة الممتلئ بالأشواك. وفي ظلال هذه الآيات يقول رحمه اللّه:

«إنها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود. وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل، وتكر الأعوام والباطل في قوته، وكثرة أهله، والمؤمنون

(١) سورة يوسف الآيتان (١١٠-١١١).

في عدتهم القليلة وقوّتهم الضئيلة. إنها ساعات حرجةٌ، والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر. والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض، فتهجس في خواطرهم الهواجس... تراهم كذبوا! ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر. وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾. ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس، والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الرجة وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات، وما يحس به من ألم لا يطاق.

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة.. في هذه اللحظة يجيئ النصر كاملاً حاسماً فاصلاً: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

تلك سنة الله في الدعوات. لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة. ثم يجيئ النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلّق بها الناس. يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من

البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون. ويحل بأس الله بالمجرمين، مدمراً ماحقاً لا يقفون له، ولا يصده عنهم وليٌّ ولا نصير.

ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً. فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعيٌّ بدعوة لا تكلفه شيئاً أو تكلفه القليل ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج، ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء. والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة، لذلك يشفقون أن يدَّعوها، فإذا ادَّعوها عجزوا عن حملها وطروحها، وتبيين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون، الذين لا يتخلون عن دعوة الله ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة!.

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل، إما أن تربح ربحاً معيناً محدداً في هذه الأرض، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحاً وأيسر حصيلة! والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية -وهي التي تدين لغير الله بالطاعة والإتباع في أي زمان أو مكان- يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة، ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل! **إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود!. ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله، باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات!..**

ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف وأن الإنضمام

إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضاً. وأنه من ثم لا تنضم إليها -في أول الأمر- الجماهير المستضعفة، إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله، التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة، وعلى متاع هذه الحياة الدنيا. وأن عدد هذه الصفوة يكون دائماً قليلاً جداً. ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق، بعد جهاد يطول أو يقصر. وعندئذٍ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجاً....».أ.هـ.

ما أجمل كلام سيد قطب رحمه الله وهو يرسم صورة المجتمعات الجاهلية من خلال الفهم والتصور السليم لطبيعة هذا الدين، وما أصدقه من كلام والمؤمن يستعرض حديث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم الذي يرويه لنا الصحابي الجليل خبّاب بن الأرَتْ رضي الله عنه حيث يقول: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمْ وَهُوَ مُتَوَسِدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَة، فَقُلْنَا: أَلاَ تَسْتَنْصِرْ لَنَا أَلاَ تَدْعُوا لَنَا؟ فَقَالَ:«قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِه، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِه، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمُوتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ وَالذِئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُون». رواه البخاري.

لقد كان بوسع الغلام والراهب وجليس الملك أن يداهنوا نظام الملك ويتميعوا في مجتمعهم حتى يصلوا إلى مآربهم وينشروا الدين من خلال مناصبهم السياسية ولكنهم لم يفعلوا. وكان بوسع الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم أن يداهن المشركين ويقبل بالملك والمال الذي عرض عليه مقابل أن

يترك الدعوة ومن ثم يحقق أهدافه من خلال ذلك الملك ولكنه لم يفعل. والسبب في ذلك كله أن أصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من التميز عن المجتمع الجاهلي لأن الإنخراط والتميع والإستسلام للقيادة الجاهلية تذهب هيبة العقيدة وأثر دعوتهم في النفوس البشرية...

وفي الختام فإن النبي صلّى الله عليه وسلّم الذي قص علينا هذه القصة قد أوتي جوامع الكلم، ولذلك فإن مآربها نبعٌ يتدفق وحصرها في كتاب بقلم بشر مثلنا لا يتحقق، فأكتفي بهذا القدر وأحمد الله على ما هدى ووفق، وأعان على إتمام الكتاب وهذا مما أنعم به عليَّ فأغدق....

اللهم اختم بالصالحات أعمالنا وحقق فيما يرضيك آمالنا وتوفنا وأنت راضٍ عنا يا رب العالمين. اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائك استر عوراتنا وآمن روعاتنا وقوِّ عزائمنا وأضعف شوكة أعدائنا واخذل كل من مكر بنا وأراد السوء لديننا أنت مولانا فنعم المولى ونعم النصير.

اللهم أسألك أن تصلي على حبيبنا محمد في الأولين وصلِّ على نبينا محمد في الآخرين وصلِّ على رسولنا محمد عدد خلقك أجمعين وصلِّ على المبعوث رحمةً للعالمين صلواتٍ نتقرب إليك بها رجاء أن تبلغنا شفاعته يوم الدين وأن تحشرنا في زمرة المتقين وأوليائك المقربين وعبادك الصالحين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
التمهيد ١١
الفائدة الأولى: التعرف على راوي الحديث ١٧
الفائدة الثانية: تصنيف ملوك الدنيا ١٩
الفائدة الثالثة: السحر والكهانة من دعائم الحكم الجاهلي..... ٢٧
قوة الساحر تعتمد على علاقته بالشيطان ٢٩
تلبيس السحرة والشياطين ٣١
الكهانة عند العرب قبل الإسلام ٣٣
رؤساء دول العالم والشعوذة ٣٥
حكم الإسلام في السحر والسحرة ٣٧
الفائدة الرابعة: الكذب وإنقاذ النفس من الهلاك ٣٩
أقسام الكذب ٤١
أشكال الكذب الجائز ٤٣
الكذب المحرم والمذموم ٤٦
عظم جرم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤٩
شياطين الجن تقرأ قرآناً ٥١
الفائدة الخامسة: كرامات الأولياء ٥٥
من هو ولي الله ٥٧
أشكال الكرامات ٥٩
الفائدة السادسة: الإبتلاء ٧٥
اشكال الإبتلاءات ٧٩
إبتلاء الله لنبيه إبراهيم عليه السلام ٨١
إبتلاء الله لنبيه لوط عليه السلام ٨٢
إبتلاء الله لنبيه أيوب عليه السلام ٨٥
إبتلاء الله لزكريا ويحيى عليهما السلام ٨٨
الوصايا النبوية ٩٢
حرمة الخروج على إمام المسلمين ٩٥
إبتلاء الله لنبيه يوسف عليه السلام ٩٧

ديمقراطية آخر الزمان ١٠٣
الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة ١٠٥
الفائدة السابعة: لكل داءٍ دواء ١٠٧
الدعاء عدو البلاء ١٠٩
أدعية مأثورة ١١١
ضرر الذنوب والمعاصي ١١٣
من آثار المعاصي ١١٧
الفائدة الثامنة: كلمة الحق ١٢٣
دعاة الحق والتهم الجائرة ١٢٥
قلب المؤمن لا يحفل الطغيان ١٢٧
العلماء يفرون بدينهم من الأمراء ١٢٩
الدين والسلطان توأمان ١٣١
صفات الإمام العادل ١٣٣
النهي عن بيع الدين بدنيا السلاطين ١٣٥
نصيحتي إلى الدعاة والرعاة ١٣٧
الفائدة التاسعة: جند الله ١٤١
آيات مفصلات ١٤٥
عصا موسى من جند الله ١٤٧
الريح من جند الله ١٤٩
أبرهة وغزو الكعبة ١٥١
دور الإسلام في رفعة العرب ١٥٣
هاشميون لإعلاء كلمة الله ١٥٥
الفائدة العاشرة: لا ينفع حذر من قدر ١٥٩
التجارة الرابحة ١٦١
شراسة طواغيت اليوم ١٦٣
الغزو الفكري لديار الإسلام ١٦٥
تموت الأجساد وتبقى الأمجاد ١٦٩
ضعف الطواغيت أمام القَدَر الإلهي ١٧١
مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله ١٧٣
كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حول المشيئة ١٧٥
ثلاثة تكلموا في المهد ١٧٩
سورة البروج ومدلولاتها ١٨١
الخاتمة ١٨٥
فهرس الموضوعات ١٩١

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كلمة بمناسبة

عندما توفي النبي صلى الله عليه وسلم وانتقل إلى الرفيق الأعلى أصيبت الأمة بمصيبة من أعظم المصائب، فمن المسلمين من صدق الخبر ومنهم من كذّبه، ومنهم من ثبت على الإيمان ومنهم من عاد إلى عبادة الأوثان. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حي لا يموت». بمعنى أن دين الله لا يرتبط بمن يحمله من البشر إنما ارتباطه بالله ربّ العالمين...

لقد مات الغلام ولم تمت تضحيته، ومات سعيد بن جبير ولم تمت روايته، ومات سيد قطب ولم تمت كلماته ودعوته، ومات عبد الله عزام ولم تمت وصيته، ومات كثيرٌ من أبطال شعب فلسطين ولم تمت انتفاضته، ومات الجهاد في حياة الخونة المتخاذلين ولكن في حياة المؤمنين المخلصين لم تمت جذوته وفي قلوب أعداء الإسلام لم تمت هيبته. فتباً لمن رضي بالحياة وقد ماتت شهامته ونخوته وضاعت أصالته!!!....

وصدق الشاعر المتنبي حيث يقول:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم